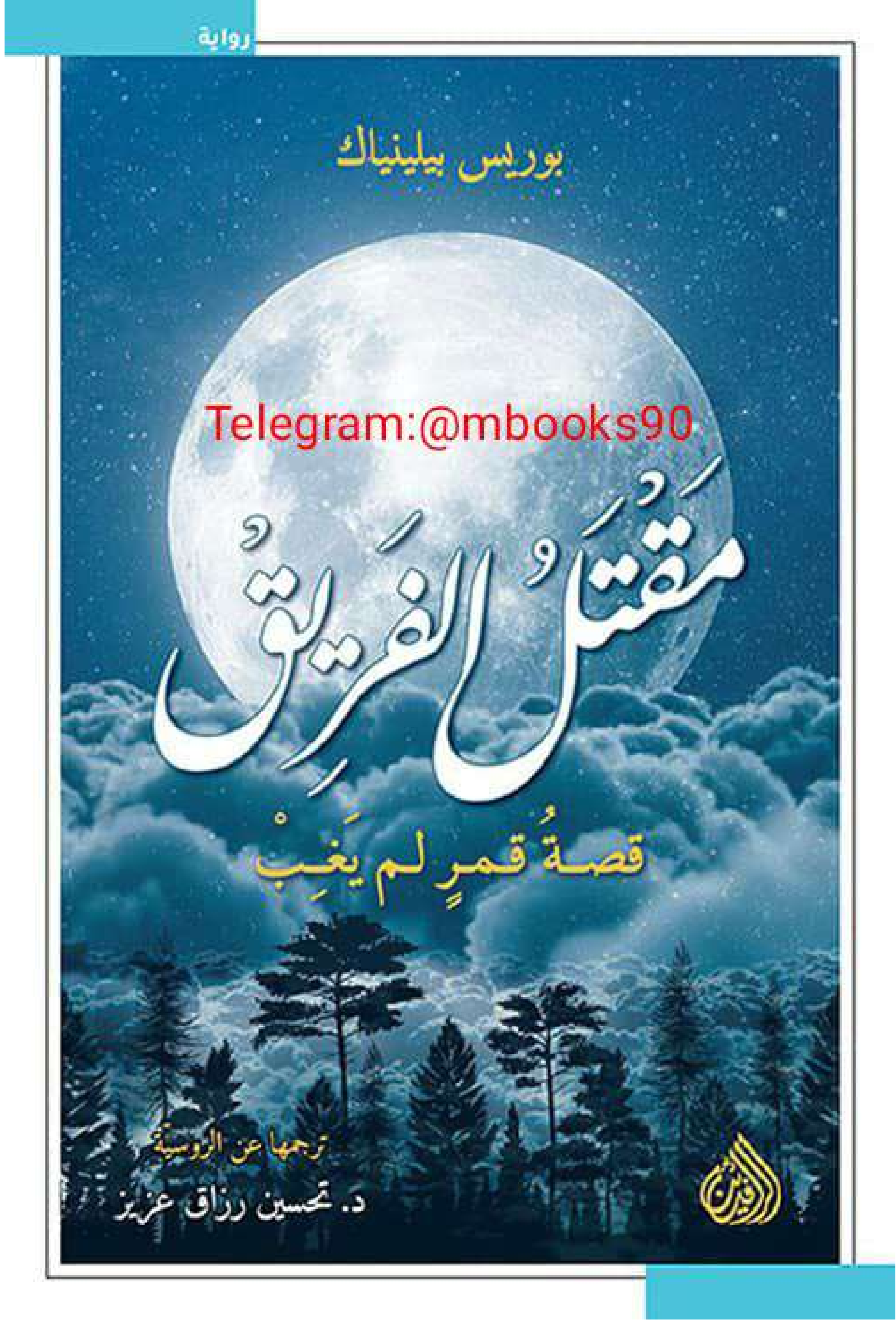

رواية
بوريس بيلينياك
Telegram:@mbooks90
مَقتَلُ الفَرِيقْ
قصةُ قمرٍ لم يَغِبْ
ترجمها عن الروسية
د. تحسين رزاق عزيز

المقدمة

تشير حبكة هذه القصة إلى أنَّ وفاة ميخائيل فاسيلييفيتش فرونزيه(1) كانت بمثابة ذريعة لكتابتها ومادة لها. أنا شخصياً، لا أعرف فرونزيه تقريباً، وبالكاد عرفته، بعد أن رأيته مرة أو مرتين. لا أعرف التفاصيل الفعلية لوفاته ـ وهي ليست مهمة جداً بالنسبة لي، لأن الغرض من قصتي لم يكن بأي حال من الأحوال تقريراً عن وفاة مفوض الشعب لشؤون الحرب. ـ أجد من الضروري إبلاغ القارئ بكل هذا حتى لا يبحث فيها بدوره عن حقائق واقعية وعن أشخاص أحياء.

موسكو

28 يناير (كانون الثاني) عام 1926.

بوريس بيلينياك

---

(1) ميخائيل فاسيلييفيتش فرونزيه (1885 ـ 1925): زعيم بلشفي قبل وأثناء ثورة أكتوبر عام 1917. وُلد فرونزيه في ما يُعرف اليوم باسم قرغيزستان، وترقى إلى رتبة قائد كبير في الجيش الأحمر في الحرب الأهلية الروسية. اشتهر بهزيمة الضابط المنشفي بيوتر نيكولايفيتش رنجل في القرم. (المترجم).

إلى فورونسكي(2)، مع الود

---

(2) ألكسندر كونستانتينوفيتش فورونسكي (1884 ـ 1937) ـ بلشفي ثوري روسي، كاتب، ناقد أدبي ومنظر فني. زعيم جماعة «العبور» الأدبية، التي أدّى أعضاؤها خلال عشرينيات من القرن الماضي أحد أبرز الأدوار في الأدب السوفيتي وتجادلوا مع أعضاء الرابطة الثورية للكتاب البروليتاريين. عضو في الحزب الشيوعي (البلشفي) (1904 ـ 1927، 1930 ـ 1934). نُكّل به وأعدِمَ رمياً بالرصاص. (المترجم).



الفصل الأول

عند الفجر، هزت المدينة صفّارات المصنع على طول الأزقة سادت عتمة من الضباب الرمادي، ومن الليل، ومن الرذاذ؛ بدأت العتمة تنجلي مع الفجر، مُشيرةً إلى أنَّ الفجر سيكون حزيناً، رمادياً، وممطراً مطراً خفيفاً. دوًت الصفارات مدة طويلة، ببطء ـ صفّارة، اثنتان، ثلاث، كثير، ـ اندمجت في عواء رمادي فوق المدينة: تلك كانت صفارات المصانع تدوّي، في ساعة الهدوء هذه قبل الفجر، ولكن من الضواحي تناهت صافرات القاطرات البخارية الصاخبة والقطارات التي تأتي وتغادر. وكان من الواضح تماماً أنَّ بهذه الأصوات الصاخبة تعوي المدينة، وروح المدينة التي خيَّمت عليها الآن عتمة الضباب. في تلك الساعة ألقت آلات الطباعة في دور طباعة هيئات تحرير الدوريات آخر الصحف المطبوعة، وسرعان ما انتشر الأولاد من باحات أقسام التوزيع إلى الشوارع وهم يحملون رِزَم الجرائد؛ صاح بعضهم عند التقاطعات الفارغة، بعد أن نحنح، بالطريقة التي كان يصرخ بها طوال اليوم:

ـ ثورة في الصين! وصول الفريق غافريلوف! مرض الفريق، قائد الجيش!

في تلك الساعة، وصل قطار إلى المحطة التي تأتي إليها القطارات من الجنوب. كان قطار طوارئ، لمعت في نهاية عربة صالون زرقاء مائلة إلى اللون الرمادي، من دون ضجيج، يقف الحراس على درجات السلَّم فيها، والعربة ذات ستائر مُنسدلة خلف النوافذ ذات المرايا.

جاء القطار من الليل الأسود، من الحقول الممتدة بترفٍ من الصيف إلى الشتاء، تلك الحقول التي استحوذ عليها الصيف كي يشيخ بفعل الثلوج. زحف القطار تحت سقف المحطة ببطء، من دون ضَوْضاء، ووقف على المسار الاحتياطي. كانت المنصة مهجورة. عند الباب كانت تقف مَفرَزة شرطة مُسَلّحة من ذوي شرائط الرُّتَب الخضراء (لا بدّ أنّ ذلك حدث بالصدفة). جاء ثلاثة رجال عسكريين، يضعون مَعينات (الأركان) على أكمامهم، إلى العربة الصالون. تبادل الأشخاص هناك تحيات الشرف ـ هؤلاء الثلاثة وقفوا عند المسند، همسَ الحارس بشيء داخل العربة، ـ ثم صعد هؤلاء الثلاثة الدرجات واختفوا خلف الستائر. توهّج ضوء مصباح كهربائي في العربة. تفحّص اثنان من الكهربائيين العسكريين ما حول العربة ومدّا تحت سقف المحطة أسلاك الهاتف إلى داخل العربة. اقترب رجل آخر من العربة، مرتدياً معطفاً خريفياً قديماً وقبعة من الفرو ذات غطاء للأذن (لا تتلاءم مع الموسم). هذا الرجل لم يؤدِّ التحية العسكرية لأيّ أحد، ولم يُؤدِّ أحد له التحية كذلك. قال هذا الرجل:

ـ أخبروا نيكولاي إيفانوفيتش أنّ بوبوف قد جاء.

نظر جندي الجيش الأحمر ببطء، وتفحّصَ بوبوف، وفحص حذاءه القديم، وأجاب ببطء:

ـ الرفيق الفريق لم ينهض من النوم بعد.

ابتسم بوبوف لرجل الجيش الأحمر بطريقة ودية، ولسبب ما تحوَّل

إلى الخطاب المُبَسَّط معه (باستعمال ضمير المخاطب المفرد «أنت»)، وقال على نحو ودّي:

ـ لا بأس، يا أخي، اذهب، هيّا، أخبره أنَّ بوبوف قد جاء.

ذهب جندي الجيش الأحمر وعاد. فصعد بوبوف إلى العربة بسبب إسدال الستائر وتوهج الضوء الكهربائي بدا الوقت ليلاً في المقصورة. ونظراً لأن القطار جاء من الجنوب بدا المكان في المقصورة جنوباً: وفاحت من المقصورة رائحة الرمان والبرتقال والكمثرى والنبيذ الفاخر والتبغ الجيد، ـ كانت رائحتها مثل نعيم بلدان الجنوب. على المنضدة، بالقرب من مصباح الطاولة طُرِحَ كتاب مفتوح وبجانبه طبق من عصيدة السميد مأكول نصفه، خلف العصيدة كان ثمة قراب مسدس «كولت» مفكوك الأزرار، مع رباط سَير ممدود كالثعبان. في الطرف الآخر من الطاولة انتصبت زجاجات مفتوحة. العسكريون الثلاثة ذوو المعين على أكمامهم كانوا جالسين مقابل الطاولة على كراسي جلدية ممتدة على طول الجدار، وجلسوا بتواضع شديد، وبكل انتباه، صامتين، وحقائب عمل في أيديهم. اندسَّ بوبوف وجلَس إلى الطاولة، ثم خلع معطفه وقبعته، ووضعهما بجانبه، وأخذ الكتاب المفتوح، ونظر فيه. جاء الدليل (الكومسري) غير مبال بكل شيء في العالم، ورفع ما كان على الطاولة؛ وضع الزجاجات في مكان ما في الزاوية؛ ومسح قشور الرمان على صينية، ثم فرش على الطاولة مفرَشاً، ووضع عليه قدحاً وحيداً في حامل، وطبقاً فيه قطعة من الخبز اليابس، وكأساً

للبيض؛ وأحضر بيضتين وملحاً وقوارير دواء صغيرة على طبق؛ ثم طوى زاوية الستارة للخلف، ونظر إلى الصباح. ومن ثم فتح الستائر على النوافذ، وشدَّ أربطة الستائر على انفراد، وبعد ذلك أطفأ الكهرباء: فتسللَ إلى الصالةِ ضوء الصباح الخريفي الرمادي الذي ازرَقَّ في رذاذ المطر. أصبح كل شيء مألوفاً للغاية، وصار يمكن للمرء أن يرى في الزاوية صندوقاً من النبيذ وسجادة ملفوفة كالأنبوب. وقف الكومسري كالتمثال في المدخل، بلا حراك، يحمل منديلاً في يديه. كانت وجوه الجميع في هذا الصباح الباهت صفراء، والضوء المائي المائع يشبه المُهل (الناجم عن قرح). وقف الجندي المرافق (المُكلَّف بخدمة القائد) في المدخل بجانب الكومسري: فقد بدأ المكتب الميداني يعمل، ورنَّ جرس الهاتف.

عند ذاك جاء الفريق من مقصورة النوم إلى الصالون. كان الفريق رجلاً قصيراً عريض الكتفين، أشقر، ذا شعر طويل ممشط إلى الخلف. كان قميصه العسكري، الذي على كمّه أربع مَعينات، غير مرتَّب، مجعداً، مَخيطاً من قماش عسكري أخضر. جزمته من الجلد المكدس، على الرغم من أنها نُظِّفَت بعناية فائقة، إلا أنَّ الكعب البالي يشير إلى طول مدة استعمالها. كان هذا رجلاً يحكي اسمه عن الجانب البطولي للحرب الأهلية بأكملها، وعن الآلاف وعشرات الآلاف ومئات الآلاف من الناس الذين وقفوا خلفه، ـ وعن مئات وعشرات الآلاف ومئات الآلاف من القتلى ومن الذين عانوا من الألم والشلل والبرد والجوع، وعن الظروف الجليدية وحمّى الحملات العسكرية، وعن قصف

المدافع، وأزيز الرصاص ورياح الليل؛ وعن نيران مشاعل الليل، وعن الهجمات، وعن الانتصارات والانسحابات، ومرة أخرى عن الموت. كان هذا الرجل الذي قاد الجيوش والآلاف من الناس، الرجل الذي قاد الانتصارات، والموت: قاد البارود، والدخان، والعظام المحطمة، واللحم الممزق، وتلك الانتصارات التي كانت تضج في الخطوط الخلفية بمئات الرايات الحمراء وآلاف الحشود، والتي حلّق بها الراديو ونشرها في جميع أصقاع العالم، ـ تلك الانتصارات، التي حُفِرَت بعدها للجثث في الحقول الرملية الروسية حُفَرٌ عميقة، كُدِّسَت فيها آلاف الأجساد البشرية كيفما اتفق. كان هذا رجلاً اتسم اسمه بأساطير الحرب، وبالقيادة العسكرية، والشجاعة الهائلة، والبسالة، والمثابرة. كان هذا رجلاً امتلك الحق والمشيئة في إرسال الناس ليقتلوا أشباههم من الناس ويموتوا. الآن دخل الصالون هذا الرجل القصير، العريض الكتفين، بوجهه البشوش المُتعَب قليلاً الذي يشبه وجه طالب في معهد لاهوتي. سار بسرعة، فتحدثت مشيته عن فارس وفي الوقت نفسه عن مدني للغاية، وليس بأي حال من الأحوال عن رجل عسكري. انتصب ضباط الأركان الثلاثة أمامه واقفين في وضعية الاستعداد: كان هذا الرجل بالنسبة لهم ـ قائد دفّةِ تلك الآلة الضخمة، التي تسمى الجيش ـ الرجل الذي قاد الحياة، وبشكل أساسي حياتهم الشخصية، ونجاحهم، وارتقاءهم المهني، وإخفاقاتهم، قائد الحياة ولكن ليس قائد الموت. توقف القائد أمامهم، ولم يمد يده، وأدّى الإيماءة التي سمحت لهم بالوقوف بوضع الاستراحة. وهكذا، تلقى القائد التقارير منهم وهو

واقف أمامهم: تقدم كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى الأمام، ووقف منتصباً في وضعية الاستعداد وقدَم تقريره ـ «هذا ما عُهد إليّ»، ـ «أنا، في خدمة الثورة». صافح الفريق كلّ مَن قدّم تقريره، حسب الترتيب (ما كان ينبغي أن يستمع إلى التقارير). ثم جلس أمام القدح الوحيد، فجاء الكومسري بجانبه ليصب الشاي من إبريق شاي لامع. أخذ الفريق بيضة.

سأل الفريقُ ببساطة وبدون تقارير:

ـ كيف الحال؟

تحدث أحد الثلاثة، وسردَ الأخبار ثم سأل بدوره:

ـ كيف صحتك، أيها الرفيق غافريلوف؟

تغيَّرَ وجه الفريق للحظة، وقال باستياء:

ـ كنتُ في القوقاز، أتلقى العلاج. لقد تعافيتُ الآن، (توقف قليلاً) أصبحتُ الآن بصحة جيدة. (صمتَ قليلاً) استريحوا هناك، لا مكان للرسميات هنا، ولا للتشريفات، بشكل عام... (صمتَ لبرهة) يمكنكم الانصراف، أيها الرفاق.

نهض ضباط الأركان الثلاثة للمغادرة. صافح القائد كلَّ واحد منهم، من دون أن ينهض. وخرجوا من المقصورة من دون ضوضاء. عندما دخل القائد إلى الصالون، لم ينحنِ بوبوف له، أخذ الكتاب واستدار به عن الفريق، وبدأ يتصفح فيه. نظر الفريق إلى بوبوف بعين واحدة ولم

ينحنِ أيضاً، وتظاهر بعدم ملاحظة الرجل. عندما غادر ضباط الأركان، سأل القائد بوبوف، من دون أنْ يرحبَ به، كما لو كانا قد رأيا بعضهما البعض الليلة الماضية:

ـ هل تريد أنْ تشرب الشاي، يا أليوشا، أم النبيذ؟

ولكن بوبوف لم يكن لديه الوقت للرد، لأن الجندي المرافق (المُكَلَّف بخدمة الفريق) قد تقدَّم، وبدأ يقدم تقريره، «إلى الرفيق الفريق» بأنَّ السيارة رُفِعَت من رصيف المحطة، وأنَّ المكتب تلقى طروداً: أحد الطرود من الدار رقم واحد، أحضره السكرتير، إنه طرد سريّ. وأن الشقة تم تجهيزها في مقرّ الأركان، وأنَّ رزمة من البرقيات والأوراق التي تحمل التهاني قد وصلت. صرفَ القائد الجندي المرافق، وقال إنه سيعيش في العربة. لم يأتِ القائد الآن إلى الجيش، بل إلى مدينة غريبة؛ إنَّ مدينته، حيث يكون جيشه، تقع على بعد آلاف الفيرستات(3) من هنا، وقد بقيت هناك، في تلك المدينة، في تلك المنطقة، شؤونه، وهمومه، ومشاغل حياته اليومية، وزوجته. وضع الجندي المرافق على الطاولة، من دون انتظار إجابة بوبوف، قدحاً للشاي وقدحاً للنبيذ. انسَلَّ بوبوف من ركنه وجلس إلى جانب القائد.

سأل بوبوف باهتمام، كما يسأل الإخوة:

ـ كيف حالك، يا نيكولاشا؟

أجاب غافريلوف، من دون أنْ يتضح إن كان جوابه جدياً أم على

سبيل المزحة، ولكنها على كل حال لم تكن مُزحة مرحة:

ـ صحتي، كما ينبغي، تحسَّنت تماماً، وأنا بعافية، ولكن ربما، سوف تضطر إلى الوقوف عند نعشي وتؤدي التحية العسكرية.

ارتبط هذان الرجلان، بوبوف وغافريلوف، بصداقة قديمة، وبعمل سري مشترك في المصنع، آنذاك، في أيام الصبا الغابرة، عندما بدآ حياتهما نَسَاجَين في مدينة «أوريخوفو زويفو»؛ هناك، في الصبا حيث يختفي نهر كليازما والغابة وراء النهر على الطريق إلى مدينة بوكروف، إلى صحراء بوكروفسكايا، التي اجتمع فيها أعضاء اللجنة: حيث كان هناك الشباب النساجون الفقراء مع كتبهم السرية، مع نشرة «خطاب الدون»، وجريدة «الشرارة»، كأنها الإنجيل بالنسبة لهم، وحيث تكتلات العمّال، والتجمعات، وأوكار اللقاءات السرية، والمساحة الواسعة عند المحطة، التي كان فيها رصاص القوزاق وسياطهم تَؤُزُّ فوق حشود العمال في 1905؛ ثم الحبس المشترك في سجن بوغورودسكايا، ومن ثم ظروف حياة الثوريّين المحترفين ـ النفي، الهروب، العمل السري، والحبس في سجن تاغانكا، والنفي، والهروب، والهجرة، باريس، فيينا، شيكاغو، ـ ثم: غمامة عام 1914، مدينة برينديزي، سالونيك، رومانيا، كييف، موسكو، بطرسبورغ، ـ ومن ثم: عاصفة عام 1917، ودير سمولني، وثورة أكتوبر، ودويّ المَدافع فوق الكرملين في موسكو، فأصبح أحدهما ـ رئيس مقرّ الحرس الأحمر في روستوف ـ على دون، والآخر ـ زعيم النبلاء البروليتاريين، وكما قال ريكوف(4) في تولا

مازحاً: واحد آنذاك له الحرب، والنصر، وقيادة المَدافع والناس والموت، ـ والآخر له ـ اللجة الإقليمية للحزب، واللجنة التنفيذية، والمجلس الأعلى للاقتصاد الوطني، والمؤتمرات، والاجتماعات، والمشاريع والتقارير: لكليهما، كل شيء: الحياة كلها، وجميع الأفكار باسم الثورة الكبرى في العالم، وباسم أعظم عدالة وحقيقة في العالم. لكنهما بقيا إلى الأبد بالنسبة لبعضهما البعض مجرّد نيكولاشكا (نيكولاي)، وأليوشا (أليكسي)، بقَيا إلى الأبد، الرفيقين النّسّاجين، من دون رُتَبٍ ومناصب وألقابٍ.

سأل بوبوف:

ـ أخبرني، يا نيكولاشا، كيف صحتك؟

ـ إنك تعرف، كان لدي قرحة في المعدة، وربما، لا تزال. والحقيقة، كنتُ أعاني من ألم، وقيء مصحوب بالدم، وحرقة رهيبة، إنه أمر مقرف فظيع، (تكلم الفريق بصوت منخفض، وهو مائل نحو أليكسي) فأُرسِلْتُ إلى القوقاز، وعُولِجتُ هناك، واختفى الألم، وعدتُ إلى العمل، عملت نصف عام، ثم عاد الغثيان والألم مرة أخرى، فذهبتُ من جديد إلى القوقاز. الآن اختفى الألم مرة أخرى، وحتى شربتُ زجاجة نبيذ من أجل التأكد من صحتي... (قاطعَ الفريق نفسه): يا أليوشكا، ربما، تريد نبيذاً، هناك، تحت المقعد، لقد أحضرت لك صندوقاً، افتح زجاجة.

جلس بوبوف، مُسنِداً رأسه على راحة يديه، وأجاب:

ـ كلا، أنا لا أشرب في الصباح. استمر بالكلام.

ـ لا بأس، ها هي صحتي كما ترى على ما يرام. (صمتَ الفريق قليلاً) أخبرني، يا أليوشا، لماذا استُدعيتُ إلى هنا، ألا تعرف؟

ـ لا أعرف.

ـ جاءت ورقة، يُطلَب منّي فيها أنْ أغادِر القوقاز على الفور، وحتى أنّي لم أعَرِّج في طريقي على زوجتي. (توقف الفريق قليلاً) اللعنة، لا أستطيع التوصل إلى ماهية الأمر، في الجيش كل شيء على ما يرام، لا مؤتمرات، ولا شيء... هل سبق لك أن ذهبتَ إلى القوقاز؟ إنها في الواقع؛ بلاد رائعة. شعراؤنا يدعونها ـ بلاد الجنوب. في البداية لم أفهم المغزى من هذه الكلمة: ولكن ما أنْ زرتها حتى أدركتُ حقّاً أنها بلاد الجنوب!... ألا تأكل رمّان، يا أليوشا، أنا ممنوع من أكله، أضَيِّف به الجنود المرافقين. وبعد، قل لي، كيف حالك؟

تحدث الفريق عن الجيش، فهو لم يعد نسّاجاً وأصبح آمر فوجٍ وجنرالاً في الجيش الأحمر؛ تحدث القائد العسكري عن مدينة «أوريخوفو زويفو» وعن أيام أوريخوفو زويفو، لم يلاحظ، ربما، كيف عاد نسّاجاً في حديثه. فها هو ذا النسّاج، الذي أحبّ هناك آنذاك معلمة من بلدة «زاريتشنيي»، التي كان ينظّف من أجلها الجزمة ويمشي إليها حافي القدمين إلى المدرسة حتى لا تكتسي الجزمة بالغبار، ولا ينتعلها إلا في الغابة الصغيرة القريبة من المدرسة. واشترى لها آنذاك منديلاً مع شريط وقبعة وأشياء أخرى، ولكن لم يكمل علاقته مع المعلمة، ولم

تحصل بينهما قصة غرامية، فقد رفضته المعلمة. كان الفريق النساج رجلاً طيباً وأريحيّاً، قادراً على المزاح وتقبّل المزاح، ـ فكان يمزح، وهو يتحدث إلى صديقه؛ ولكن من حين لآخر يتذكر فجأة أنه قائد عسكري، ويضطرب: استذكر تحدّياً غير مفهوم، وتحرّك حركة مرتبكة وتكلّم حينئذ من موقع النسّاج المعافى عن القائد العسكري المريض: «الآن أنا صاحب مقام كبير، مارشال ميداني، وسناتور أيضاً! بينما لا أستطيع أن آكل عصيدة الحنطة السوداء... أجل، يا أخي، عضو اللجنة المركزية يؤدي دور الإنسان، فالإنسان كما يُقال لا يغيّر طبعه»، وصمتَ.

قال بوبوف:

ـ نيكولاشا، قل لي، حقاً، بأي شيء تشك؟ ما هذا الذي هذرتَ به عن التحية العسكرية للنعش؟

لم يُجِب الفريق على الفور، وأجاب ببطء:

ـ التقيت في مدينة روستوف بـ «بوتاب» (سمّي بالاسم الحزبي أكبر ثوري من بين «الرفاق الكبار» للعام ثمانية عشر)، ـ وقد قال لي... أقنعني بإجراء عملية، بقَطع القرحة أو خياطتها، لقد أقنعني على نحو مثير للريبة. (صمتَ القائد العسكري) أشعر بصحتي جيدة. وكل ما في داخلي يقف ضد العملية، ويعارضها، أنا لا أريد أن أعمل العملية، وستتحسن صحتي من تلقاء نفسها. فبعد كل شيء، لم تعد ثمة المزيد من الآلام بعد، وازداد وزني، وما إلى ذلك... لا أحد يعرف ما الحالة، ـ فها أنا ذا رجل كهل، شيخ من علية القوم، ولكن أنظر إلى بطني، وأشعر

بالخجل. (صمتَ الفريق، وأخذ الكتاب المفتوح) إني أقرأ تولستوي، الرجل العجوز. إنه كتاب «الطفولة والصبا». ألّفه الرجل العجوز على نحو جيد، ـ لقد شعر بظروف الحياة وبالدم... أنا رأيث الكثير من الدماء، لكنني خائف من العملية، مثل الصبي، لا أريد، سينحرونني... لقد فهم العجوز على نحو جيد ما معنى دم الإنسان.

دخل الجندي المرافق ووقف في حالة الاستعداد، وقدَّم تقريراً، عن قدوم أحدهم من مقرّ الأركان الرئيس، يحمل معه مذكرة، مفادها أنّ سيارة جاءت من أجل القائد من الدار رقم واحد، وطلب مَن فيها أنْ يتفضّل القائد إلى هناك، ـ وأنّ برقيات جديدة قد وصلت، ـ وأنّ أحدهم أرسله من أجل طردٍ من الجنوب. وضع الجندي المرافق حزمة من الصحف على الطاولة. فصرف الفريقُ الجنديَّ المرافق. وطلب إحضار معطفه العسكري. فتح القائد العسكري الصحيفة. هناك، في الصحيفة، أخبار عن أهم حوادث اليوم: «وصول قائد الجيش غافريلوف»، ثم في الصفحة الثالثة، يوجد خبر مفاده «سيصل اليوم الفريق غافريلوف، الذي ترك جيشه مؤقتاً من أجل إجراء عملية القرحة في المعدة». وفي المقالة نفسها، خبر عن أنَّ «صحة الرفيق الفريق غافريلوف تثير القلق» ولكن «تكفّل الأساتذة بنتيجة جيدة للعملية».

غافريلوف ـ جندي الثورة العجوز، الجندي، الذي يحمل رتبة الفريق، القائد العسكري، الذي أرسل الآلاف من الناس للموت، إنجاز الآلة العسكرية المُعَدَّة للقتل والموت والانتصار بالدم، ـ اتَّكأ على ظهر

الكرسي، ومسحَ جبينه بيده، ونظر إلى يد بوبوف نظرة ثاقبة، وقال:

ـ يا أليوشكا، ألا تفهم. الأمر ليس هيّناً. أجل. فما العمل؟ ـ وصاح: أيها الجندي (المراسل)، احضِر لي المعطف!

كانت الساعة الحادية عشرة نهاراً، الوقت الذي امتدَّت فيه على المدينة عكرةُ النهار المائلة إلى الخُضرة. في هذه المدينة، التي، في الواقع، لم تكن تُرى فيها هذه العكرة الخضراء، لأنَّ فوق قطعة الأرض هذه التي تصطف عليها المنازل، بدأت آلة المدينة في العمل، تلك الآلة الكبيرة، المعقدة للغاية، التي بدأت تدور وتشد كل شيء في هذه المدينة ـ من العربات التي تجرها الجياد، وعربات الترام والحافلات، ومن الأسِرة غير المُرَتَّبَة في المنازل إلى الجنود الذين يسيرون على الكورنيش، إلى الصمت المهيب في القاعات المحاسبية العالية السقوف وفي مكاتب مفوَّضي الشعب (الوزراء)، ـ آلة المدينة هذه المعقدة، التي طاردت الناس بأنهارها إلى خلف المكائن وخلف الطاولات وخلف المكاتب، في السيارات، وفي الشوارع، ـ هذه الآلة، التي لم تكن تُرى خلفها السماء الرمادية والرذاذ والوحل وعكرة النهار الخضراء.

---

(3) فيرست: وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. يتم تعريفها باعتبارها تساوي 500 قامة (ساجين)، القامة تعادل (2,13 م)، مما يجعل الفيرست يساوي 1.0668 كيلومتراً. (المترجم).

(4) أليكسي إيفانوفيتش ريكوف، (1888 ـ 1938): واحد من أهم الثوار البلاشفة والسياسيين في الاتحاد السوفياتي. في المدة من 1924 إلى 1929، ترأس مجلس مفوّضي الشعب. (المترجم).

الفصل الثاني

في مفترق طرق الشارعين الرئيسَين في المدينة، هناك، حيث تدفقت السيارات، والناس، والعربات التي تجرها الجياد على شكل رتل خامد، انتصب منزل ذو أعمدة خلف سياج من قوائم خشبية مُدبَّبة. أشارت وضعية المنزل بأمانة إلى أنه متروك هكذا، خلف السياج الخشبي، مُستنِد بهذه الأعمدة، واجم، ومتمهّل بهذا السياج، ـ هكذا تُرِكَ هذا المنزل لمدة قرن، في هدوء هذا القرن. لم تكن ثمة يافطة على هذا المنزل. توافد عند البوابة أفرادٌ وحشودٌ، ودوّى صوت منبه السيارات، وجرى زمن الناس والنهار الرمادي، ومرّ من هنا بائعو الجرائد ورجال يحملون حقائب العمل ونساء يرتدينَ تنانير إلى حدّ الركبتين وجوارب من النوع الذي يخدع البصر فترى سيقان النساء عارية؛ خلفَ عُنُقي البوابة خمدَ الزمن وتوقّف. وانتصب منزل آخر في الطرف الثاني من المدينة، بطراز معماري كلاسيكي أيضاً، خلف السياج الخشبي والأعمدة، وخلف أجنحة البناية الجانبية والسحنات المُخيفة من الهراء الأسطوري المنقوشة على الحجر. انتصب هذا المنزل في طرف المدينة، وقد امتدّت أمامه ساحة، وارتفعت فوق الساحة السماءُ الرمادية الفسيحة في هذا الجزء من المدينة، واثنتان من مداخن المصانع، وهوائيات، وأسلاك التلغراف. في الفناء وفي جنينة هذا المنزل ارتفعت أشجار البتولا بدلاً من الورود وزهور الليلك. بدت تلك الأشجار الآن، في النهار الخريفي، مُتساقطة الأوراق، مبللة، تهدّلت

أغصانها. خلف الفناء وخلف المنزل انخفض مُنحَدر، وتدفق هناك نهر، وفي المروج وراء النهر مرة أخرى امتدت السماء الرمادية ومَداخن المصانع وقرى وكنائس صغيرة؛ نَمَت على المُنحَدَر أشجار البتولا، التي سطت عليها طوّافات الصيف. كانت بوابات هذا المنزل اثنتين، على البوابة عوَّجَت وجوهها صورُ الفونات (آلهة الحقول والقطعان عند الرومان). وتوزَّعَت عند البوابة أكشاك للحراسة، وجلس حراسٌ على المقاعد أمام تلك الأكشاك، يرتدون مآزِر وأحذية من اللبّاد، ويضعون شارات نحاسية على المآزر. وكانت تقف عند البوابة سيارة مغلقة، سوداء، مرسومة عليها صلبان حمراء وكتابة ـ «سيارة إسعاف».

في ذلك اليوم، في المقالة الافتتاحية لأكبر جريدة كُتِبَ عنوان «بخصوص الذكرى السنوية الثالثة للعملة الذهبية» أُشير فيه إلى أنَّ العملة الصلبة القوية لا يمكن أنْ توجد «إلا بعد أنْ تُبنى الحياة الاقتصادية كلها وفق حساب اقتصادي قوي، وعلى قاعدة اقتصادية متينة. إذ إنَّ الدعم الحكومي وإدارة الاقتصاد الوطني غير المتناسبة مع الميزانية ستخلّ حتماً بالنظام المالي الثابت». وكان في الجريدة ثمة عنوان رئيس: «نضال الصين ضد الإمبريالية». وفي قسم الشؤون الخارجية كانت برقيات من إنكلترا، وفرنسا، وألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، ولاتفيا، وأمريكا. ونُشِرَت في الجريدة مقالة كبيرة (تشغِل أسفل الصفحة): «مسألة العنف الثوري». وفيها صفحتان مكرستان للإعلانات، نُشِرَ فيهما بخط عريض: «السفلس ـ حقيقة الحياة». وكتاب جديد لسولومن بروِيدي «في مصحة الأمراض

العقلية».

وللعلم فقط، في العدد هذا نفسه، نشرَت الجريدة عشرات البرامج الرائعة في المسارح، ودور العروض الكوميدية المتنوعة، ومنصات التمثيل المفتوحة، ودور السينما. لنتصوّر الناس في المساء بعد يوم العمل، والضباب، وطوابير الانتظار، والاستقبالات، والصمت المهيب في القاعات المحاسبية العالية السقوف، وصرير مكائن النسج في مَعامِل النسيج الصوفي وفي معامل الورق، وقعقعة المَطارِق في المصانع وفي ورشات الحدادة، وصفارات القاطرات الذاهبة والآيبة، وزئير الحافلات والسيارات، وصليل أجراس الترام، ورنين أجراس الهواتف، والدندنة على مداخل أبواب العمارات، ونواح أجهزة الراديو، وبكل ما يمثله نهار ماكنة المدينة، (إذا ما استبقنا الأحداث وغيَّرنا نهار العمل والأعمال في المساء، كما فعل الزمن، عندما غذّى النهار بالغَسَق، وسكب على الشوارع الأنوار من المصابيح، التي صارت في الرذاذ تشبه العيون الدامعة، وبعدما غطّى السماء) لنتصوّر هؤلاء الناس ـ الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والبالغين، بعد كل ذلك، يذهب عشرات الآلاف منهم في المساء إلى دور السينما والمسارح ودور العروض الكوميدية المتنوعة، ومنصات التمثيل المفتوحة، والحانات والمطاعم. وهناك، في أماكن العَرض، يُقَدَّمُ كل شيء، وأيّ شيء بخلط الزمان والمكان والبلدان، حيث يُعرَض اليونانيون بشكل لم يكونوا عليه أبداً، والآشوريون بشكل لم يكونوا عليه أبداً، ـ ولم يُقدَّم على الإطلاق اليهود أو الأميركيون أو البريطانيون أو الألمان، ـ وقُدِّمَ الصينيون

المظلومون غير المألوفين أبداً، والعمال الروس، (وشخصيات التاريخ الروسي) أراكتشييف، بوغاتشيوف، نيكولاي الأول، ستينكا رازين؛ بالإضافة إلى ذلك، أظهرَت هناك القدرة على التحدث بشكل جيد أو سيئ، واستعرضَت السيقان والأذرع والظهور والصدور سواءً الجيدة منها أو السيئة، وقُدِّم الرقص والغناء الجيد أو السيئ؛ بالإضافة إلى ذلك، استعرضَت جميع أنواع الحب وحوادث الحب المختلفة، التي لم تحدث أبداً في الحياة اليومية. فكان الناس المتأنقون يجلسون في صفوف، يشاهدون، يستمعون، يصفقون بشدة، وعندما ينزلون على السلالم المضيئة للمسارح إلى الشوارع الرطبة، يعلّقون على عجل، محاولين دائماً أن يكونوا أذكياء. ثم تفرغ الشوارع للراحة ليلاً ـ وفي الليل، في منتصف الليل، في الساعة التي يصيح فيها أوائل الديوك في القرى، يأوي الأزواج والزوجات، والعشاق والعشيقات في منازلهم إلى الأسِرَّة، وفي الغالبية العظمى من الحالات، حتى غير المتزوجين. ثم يسلموا أنفسهم لما تنخرط فيه الحيوانات والطيور والحشرات في النهار عند شروق الشمس وعند غروبها.

لكن النهار مضى حسب ترتيبه المُعتاد، عاداً ساعاته على ساعات المكاتب والبنوك والمصانع والورشات وعلى الساعات المنصوبة في الساحات وعلى ساعات الجيب. بدأ المطر يتساقط عدة مرات، وتوقف عدة مرات. وأحياناً كان يتساقط الثلج ليختلط بالوحل على الأرصفة ويجعله أكثر كثافة. فكانت ماكنة المدينة تعمل كما ينبغي، مثل أي آلة.

وفي الظهيرة، اقتربت السيارة «رويس» المغلقة من المنزل رقم واحد، من ذلك المكان الذي بطّأ حركة الزمن. فتح الحارس الباب ونزل الفريق من السيارة الليموزين... في المعركة، عندما يركض الناس إلى الهجوم، فإنهم يصدرون ضوضاء أكثر مما في وضعيتهم العادية، وعندما تضرب المدفعية، يزأر رعيل المدفعية بصوت أعلى من صوت فوج في معسكر مؤقت، وعادة ما يكون الصوت أعلى في مقرّ الفوج منه في مقرّ الفرقة: في مقرّ قيادة الجيش ينبغي أنْ يكون الصمت مُشَدَّداً، ولكن يُصرَخ هناك في الاجتماعات بصوت أعلى مما في الرئاسة ـ ويكون الصوت أكثر انخفاضاً في اجتماعات رئاسة اللجنة التنفيذية...

... في هذا المنزل، جثمَ صمت مُطبَق، وكانت الهواتف ترن بصوت منخفض، وأدوات العَدّ (الحسَابات) لا تُصدر ضوضاء، والناس هناك يمشون بصمت، ولم تكن حركة الأفراد مضطربة، ولم ينحنوا في جلستهم، انتصبت جدرانٌ عليها ملصقات حلَّت محل اللوحات، وامتدت سجَادات الأرضية حمراء، ووقف عند الأبواب رجال ذوو شرائط رُتَبٍ حمراء. في غرفة المكتب في الطرف البعيد من المنزل، كانت النوافذ نصف مغطاة بالستائر، والشارع يمر خلف النوافذ؛ في غرفة المكتب موقد مُشتَعل؛ كان على طاولة المكتب في الغرفة (فوق قطعة قماش حمراء) ثمة ثلاثة هواتف لإثبات الصمت إلى جانب قِطَع الخشب التي كانت تطقطق في الموقد؛ ثلاثة هواتف ـ ثلاثة شرايين ممدودة من المدينة إلى غرفة المكتب من أجل قيادة المدينة من هذا الصمت، ومن

أجل معرفة المدينة، ومعرفة شرايين المدينة كلها. وكانت في غرفة المكتب على طاولة الكتابة ثمة آلة كاتبة ضخمة مصنوعة من البرونز، ودزينة من أقلام الرصاص باللونين الأحمر والأزرق وضِعَت في مقلمة. على الجدار في غرفة المكتب، خلف طاولة الكتابة ثُبِّتَ جاهز راديو مع زوجين من سماعات الآذان واصطفت، مثل سَرية في الجبهة، منظومةٌ من أجراس كهربائية ـ من جرس غرفة الاستقبال إلى جرس «إشارة الإنذار العسكري». مقابل الطاولة كان ثمة كرسي جلديّ بمَساند. في المكتب جلس رجل منتصبٌ خلف طاولة الكتابة على كرسي خشبي. كانت الستائر على النوافذ نصف مغلقة، وكان مصباح كهربائي مضاء تحت أبجور أخضر على طاولة المكتب، وكان وجه هذا الرجل المنتصب الجلسة غير مرئي في الظل.

سار الفريق على السجادة وجلس على الكرسي الجلدي.

الأول، وهو الرجل الجالس مُنتصباً:

ـ يا غافريلوف، ليس لي ولكَ أن نتحدث عن حَجَرِ رحى الثورة. عجلة التاريخ ـ لسوء الحظ، على ما أعتقد ـ تتحرك إلى حدٍّ كبير بالموت وبالدم، وخاصة عجلة الثورة. ليس لي ولك أن نتحدث عن الموت والدم. إنك تتذكر، كيف قدنا، أنا وأنت، جنود الجيش الأحمر العراة إلى بلدة يكاترينوف. كان لديك بندقية وكان معي بندقية. مُزِّقَ حصانك بقذيفة، وتقدَّمت إلى الأمام ماشياً على قدميك. وهرع رجال الجيش الأحمر إلى الخلف، فأطلقتَ النار على أحدهم من مسدسكَ

حتى لا يهرب الجميع. أيها القائد، كنت ستطلق النار عليَّ أيضاً لو جبنتُ، وأعتقد أنك كنت على حق لو فعلتَ ذلك.

الثاني، وهو الفريق:

ـ آه، يا لهذا الأثاث الذي أثثت به مكتبك، إنك وزير حقاً، ـ هل يمكن التدخين هنا؟ فأنا لا أرى ثمة أعقاب سجائر هنا.

الأول: ـ لا تدخن، لا داعي للتدخين. صحتك لا تسمح لك. وأنا شخصياً لا أدخن.

الثاني بصرامة وبسرعة:

ـ تكلم بدون ديباجة ـ لماذا استدعيتني؟ لا جدوى من الكلام الدبلوماسي. هيّا، قُل!

الأول: ـ استدعيتُكَ، لأنك تحتاج إلى إجراء عملية. أنت إنسان تحتاجه الثورة. لقد استدعيتُ أساتذة متخصصين، فقالوا إنك في غضون شهر سوف تستطيع الوقوف على قدميك. هذا ما تطلبه الثورة. الأساتذة في انتظارك، وسوف يفحصونك، وسيفهمون كل شيء. لقد أصدرتُ أوامري بهذا الخصوص. وحتى أحد الأساتذة الذين جاؤوا حضر من ألمانيا.

الثاني: ـ أنت افعل كما تريد، لكنني سأدخن على كل حال. أخبَرَني أطبائي أنني لست بحاجة إلى إجراء العملية، وسيشفى كل شيء من تلقاء نفسه. أشعر بصحتي جيدة، ولست بحاجة إلى أيِّ عملية جراحية،

ولا أريد ذلك.

الأول دسَّ يده إلى الخلف، وتحسَّسَ عن زرّ الجرس على الحائط، ودق الجرس، فدخل السكرتير الصامت، ـ سأل **الأولُ**: «هل ثمة أحد ينتظر من أجل المقابلة»، فأجاب السكرتير بالإيجاب. **الأول** ـ لم يزُد بشيء، وصرف السكرتير.

الأول: ـ أيها الرفيق الفريق، إنك تتذكر كيف ناقشنا ما إذا كان يجب إرسال أربعة آلاف شخص إلى موت محقق أم لا. وقد أمرتَ أنت بإرسالهم. وفعلت الشيء الصحيح. ـ في غضون ثلاثة أسابيع سوف تقف على قدميك. ـ أرجو المعذرة، لقد أعطيتُ الأمر بذلك.

رن جرس الهاتف، ليس هاتف المدينة، بل الهاتف الداخلي، ذلك الذي فيه ثلاثون أو أربعون سلكاً فقط. **الأول** رفعَ سماعة الهاتف، واستمعَ، وأعاد السؤال، وقال: ـ «المذكِّرة للفرنسيين، ـ بالطبع، رسمياً، كما قالوا بالأمس. ألا تفهم؟ تذكَّر، لقد اصطدنا سمك السلمون المرقط! الفرنسيون لزجون جداً. كيف؟ نعم، نعم، حرّكها. إلى اللقاء».

الأول: ـ معذرة، لا يوجد شيء للحديث عنه، أيها الرفيق غافريلوف.

أنهى قائد الجيش سيجارته، ودسَّ عقب السيجارة مع الأقلام الرصاص الزرقاء والحمراء، ونهض من الكرسي.

الفريق: ـ وداعاً.

الأول: ـ إلى اللقاء.

خرج الفريق إلى المدخل ماشياً على السجاد الأحمر، ونقلته السيارة «رويس» إلى ضجيج الشوارع. الرجل المنتصبُ الجلسةِ بقي في المكتب. لم يأتِ أحد إليه بعد الآن. انكبّ على الأوراق من دون أنْ ينحني، وفي يديه قلم رصاص أحمر سميك. ثم دقّ الجرس، فجاء السكرتير، قال للسكرتير: «أأمر أحدهم أنْ يرفع عقب السيجارة» من هنا، من هذا المَسنَد. وبقي مرة أخرى مُنكبّاً بصمت على الأوراق، وفي يديه القلم الأحمر. مرت ساعة وأخرى وظل الرجل منكبّاً على الأوراق ويعمل. وبمجرد أنْ رنّ جرس الهاتف، استمع وأجاب: «بمليونَي روبل أخفاف ومنسوجات لتركستان لسد ثقب النقص في التجهيزات. نعم، هذا الأمر مُسَلَّم به. نعم، امضِ. وداعاً». دخل عامل الخدمة بصمت، ووضع صينية بها قدح من الشاي وقطعة لحم بارد مغطاة بمنديل على المنضدة بجانب النافذة، وغادر. ثم استدعى الرجلُ المنتصبُ الجلسةِ السكرتيرَ وسأله: «هل النشرة السرية جاهزة؟» ـ ومرة أخرى، ظل الرجل صامتاً لمدة طويلة على ورقة كبيرة، حول عناوين مفوضية الشعب للشؤون الخارجية، والأقسام السياسية والاقتصادية في الدائرة السياسية الحكومية الموحّدة(5)، ومفوضية الشعب للشؤون المالية، ومفوضية الشعب للتجارة الخارجية، ومفوضية الشعب للعمل.

ثم دخل إلى المكتب رجل ثم آخر، إنهما الآن رجلان من الثلاثي الحاكم

خيّم فوق المدينة يوم أصفر في عكرة من الضباب. وبحلول الساعة الثالثة، بدأت الأزقة والسماء تتحول إلى اللون الأزرق والرمادي.

السماء، كأنها معمل ضخم يتاجر بشراء وبيع الألحفة (اللُّحُف) المُضَرَّبة (المحشوة بالصوف أو القطن) المُدَهَّنة إلى درجة اللمعان المغبر.

في الساعة الرابعة، في الوقت الذي بدأت المدينة فيه كأنها تبكي من خلال زجاج الفوانيس المبللة الزائغة مثل عيون البغايا، الوقت الذي امتلأت فيه الشوارع بالناس، وهدرت فيه أبواق السيارات، ودوّت صفارات المصانع والقطارات وصلصلت فيه عربات الترام، وصلت عدة سيارات إلى المنزل رقم 2 في الضاحية. كانت الظلمة تغشى المنزل، كما لو أنَّ الظلام يمكن أن يسخن النداوة الشديدة الرطوبة. نوافذ المنزل التي تطل على الفضاء الممتد خلف النهر توهجت بفعل الشق الأخير النازل من غروب الشمس، وهناك، خلف هذا الفضاء، شُحِذَ هذا الشق وبدا كأنه ينزف دماً خاثراً أرجوانياً. ـ وقف اثنان من رجال الشرطة (المليتسيا) عند بوابة المنزل إلى جانب الحراس يرتدون مآزِر وينتعلون أحذية اللباد. وعند باب المدخل الرئيس وقف اثنان من رجال الشرطة. قائد الجيش الأحمر، الفريق الذي يحمل وسامَي الراية الحمراء، المرن مثل غصن الصفصاف، دخل مع رجلين من الجيش الأحمر إلى مدخل المنزل. كانت في ذلك الوقت ساعة الاستراحة في المنزل، وقد عمَّ الهدوء فيه، إلا في مكان ما بعيداً كانت ممرضة تغني أغنية هادئة حول كيفية خروجها إلى النهر، وهي تنظر إلى الماء الجاري فيه بسرعة. استقبل رجل يرتدي مريولاً أبيض الفريقَ والرّجلَين من الجيش الأحمر في المدخل. وقال: «أجل، لعلك تعرف» ـ ثم صمتت أغنية الممرضة عن النهر. النوافذ في حجرة

استقبال المرضى تطل على الفضاء الواسع خلف النهر. هنا كانت النوافذ بلا ستائر، هنا كانت الجدران مطلية باللون الأبيض، وهنا سقط من السقف ضوء مصباح كهربائي أبيض. لم تكن ثمة هواتف هنا. كانت الغرفة كبيرة وخالية. في منتصفها توجد طاولة عليها قطعة قماش مشمَع بيضاء، وحول الطاولة انتصبت كراسي مغلّفة بقماش مشمع ذات مساند للظهر مرتفعة (مصمَّمَة على الطراز الحكومي، مثل كراسي السكك الحديدية). ووضِعَت عند الحائط أريكة مكسية بقماش مشمَّع ومغطّاة بملاءة، وبجوار الأريكة كرسي خشبي بلا مسنَد. وفي الزاوية فوق حوض المِغسَلَة، على رف زجاجي، وضِعَت قوارير ذات تسميات مختلفة، وزجاجات من كلوريد الزئبق، ووعاء من الصابون الأخضر، وعلّقَت بالقرب منها مناشف صفراء غير مُزَرَّقَة بالغسيل. مع أوائل السيارات وصل الأساتذة والمعالِجون والجراحون. جاء إلى غرفة استقبال المرضى أشخاص يرتدون سِترات رسمية طويلة وجاكيتات سوداء؛ هؤلاء الناس خلعوا ستراتهم ولبسوا أردية بيضاء. خمدت صُفرة غروب الشمس وراء النهر في النوافذ. دخل الناس، وتبادلوا التحيات، وكان في استقبالهم صاحب الدار ـ وهو رجل طويل القامة، ملتحٍ، بشوش، أصلع. رجال العلم، والمتخصصون في الطب، على وجه الخصوص، في الغالبية العظمى من الحالات، لسبب ما، قبيحون للغاية: إما أنَّ عظام خدودهم لم تنمُ، أو أنَّ عظام خدودهم متضخمة، إلى درجة تبدو وجناتهم أوسع من الأذنين؛ وتكون عيونهم دائماً تقريباً تحت النظارات، إما على الصدغين، أو ترتفع إلى زوايا تجاويف العين؛

حرمَ القدرُ بعضهم من الشعر، ونمت لحية خفيفة حتى أعناقهم، ولدى البعض الآخر منهم برز الشعر بكثافة ليس على عظام الوجنتين والذقن فقط، بل وحتى على الأنف والأذنين؛ وربما يكون هذا الظرف قد أوجد بين العلماء عادة غرابة الأطوار، التي يكون فيها كل عالم بالضرورة غريب الأطوار في تصرفه، وزيادة على ذلك، غرابة أطواره هذه تزيد من سعة علمه. وللعلم، لا بدّ أنه لم تكن الآن ثمة أيّ غرابة في الأطوار في غرفة استقبال المرضى هذه. فالشخص الذي استقبله صاحب الدار، وهو جراحٌ، بروفيسورٌ، مكسو وجهه بالشعر حتى نما الشعر على أنفه، تمثلت غرابة أطواره بهذا الشعر فقط الغزير المضطرب، الذي جلست عليه نظارات صغيرة ـ وتألقت غرابته في رأسه الأصلع. سار لملاقاته البروفيسور لوزوفسكي، وهو رجل يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً تقريباً، حليق اللحية، يرتدي سترة رسمية طويلة، ويضع على أنفه نظارات أنفية ذات عارضة مستقيمة، وعيناه تتشبثان في زوايا تجويف العينين.

ـ أجل، لعلك تعرف.

سلَّمَ الرجل الحليق اللحية للرجل الكثّ الشعر مظروفاً ممزوقاً وعليه ختم شمع. أخرج الرجل الكثّ الشعر ورقة، وعدَّلَ نظارته، وقرأ، ثمَّ عدَّلَ نظارته مرة أخرى، وسلَّم الورقة بارتباك إلى الثالث.

الرجل الحليق اللحية قال على نحو مهيب:

ـ كما ترون، الورقة سرية، تكاد تكون أمراً أُرسِلَت إلي في الصباح

أنت تفهم.

الأول، الثاني، الثالث ـ مقتطفات من حوارات، بصوت منخفض، وعلى عجل.

ـ ما دخل اجتماع الأطباء التشاوري بهذا الأمر؟

ـ جئتُ على أثر نداء عاجل. جاءت برقية باسم رئيس الجامعة.

ـ الفريق غافريلوف، هو، في الحقيقة، ذلك الذي...

ـ أجل، لعلكم تعرفون، ـ الثورة، قائد الجيش، الأسلوب ـ فلهذا، أرجوكم.

ـ اجتماع تشاوري للأطباء.

ـ هل رأيتموه، أيها السادة ـ الرفيق الفريق غافريلوف ـ وأيّ نوع من الناس هو؟

ـ أجل، لعلك تعرف، يا صاحبي.

يسقط ضوء مصابيح الكهرباء هنا بشدة على شكل ظلال منحوتة بقسوة. حمل جرح غروب الشمس الفضاءَ الشاسع خلف النهر إلى الظلام. أخذ أحدهما الآخر من زر جيب الصدر في المريول؛ أخذ أحدهما ذراع الآخر ليمشي. ثم: ـ بصوت عالٍ، ببطء، بهدوء ـ **الأول، الثاني، الثالث**:

ـ تقرير الأستاذ أوبل عن الإفراز الداخلي في مؤتمر الجراحين. وقد

ناقشث ـ العَفَج (المعى الاثنا عشري).

ـ اليوم في دار العلماء.

ـ شكراً لك، زوجتي بصحة جيدة، تعاني قليلاً من التهاب القولون. وكيف حال يكاترينا بافيلوفنا؟

ـ يا بافيل إيفانوفيتش، مقالتك في مجلة «الطبيب العمومي».

ثم: ـ دقت بنادق رجال الجيش الأحمر على الباب، وطقطقت كعوب أحذيتهم، وخمد رجال الجيش الأحمر في صمتٍ؛ ظهر عند الباب شابٌ طويل القامة يشبه غصن الصفصاف ويحمل على صدره أنواط الراية الحمراء، ومرن مثل السوط، ووقف أمام الباب في حالة الاستعداد. وسرعان ما دخل الفريق، قائد الجيش، إلى ردهة استقبال المرضى، دفعَ شعره بيده إلى الوراء، وعدَّلَ طوق قميصه العسكري، وقال:

ـ مرحباً، أيها الرفاق هل ستأمرونني بخلع ملابسي؟

ثم جلس الأساتذة ببطء على الكراسي المكسوة بالقماش المشمَع حول الطاولة، ووضعوا مرافقهم على الطاولة، ورخَوا أيديهم، وعدَّلوا نظاراتهم، وطلبوا من المريض الجلوس. فقال الرجل الذي عيناه تتشبثان في زوايا تجويف العينين من تحت النظارات الأنفية المستقيمة، والذي سلَّم الرزمة إلى الرجل الكث الشعر:

ـ يا بافيل إيفانوفيتش، أنت، بصفتك الشخص الأول بين الأنداد، على ما أعتقد، لن ترفض أنْ تترأس الجلسة.

باشر القائد العسكري بفك أزرار ياقته وسأل:

ـ هل ستأمرونني بخلع ملابسي؟

تظاهر بافيل إيفانوفيتش، رئيس الاجتماع الاستشاري، أنه لم يسمع سؤال الفريق، وقال ببطء، وهو يجلس على الكرسي:

ـ أفترض أننا سنطلب من المريض عندما يشعر بنوبات المرض وبأعراض مرَضيّة غير طبيعية تشير إلى أنه مريض. عند ذلك نفحص المريض.

... من اجتماع الأساتذة هذا، بقيت ورقة كُتِبَت بخط يد غير مقروء، كما يكتب الأساتذة في العادة، وبالإضافة إلى ذلك، كانت الورقة صفراء، وغير مُخطَّطة وممزقة بشكل سيئ، ـ الورقة مصنوعة من عجينة الخشب، وحسب المختصين والمهندسين يُتَوَقَّع أن تنتهي صلاحيتها بعد سبع سنوات.

محضر اجتماع الأطباء الاستشاري المكون من الأستاذ فلان والأستاذ فلان، والأستاذ فلان (سبع مرات).

تقدم المريض، المواطن، نيكولاي إيفانوفيتش غافريلوف بشكوى من الألم في المنطقة الشرسوفية ومن القيء والحموضة المعوية. وقد مَرِضَ منذ عامين، فجأةً. وكان يعالَج طوال الوقت في العيادة الخارجية وذهب إلى المنتجعات، ولكن لم تتحسن حالته. وبناءً على طلب المريض عُقِد اجتماع استشاري مكوّن من الأشخاص المذكورين

في أعلاه.

الحالة الراهنة. الحالة العامة للمريض مُرضية. الرئتان سليمتان. ومن جانب القلب، هناك تمدد طفيف ونبض سريع ووهن عصبي في شكل ضعيف. ومن جانب الأعضاء الأخرى، باستثناء المعدة، لم يلاحَظ أيّ شيء مَرَضي. لقد ثبت أنَّ المريض يعاني على ما يبدو من قرحة في المعدة ويحتاج إلى إجراء عملية جراحية.

يقترح اجتماع الأطباء التشاوري على البروفيسور أناتولي كوزمين لوزوفسكي أن يجري العملية للمريض. وافق الأستاذ بافيل إيفانوفيتش كوكوسوف على المساعدة خلال العملية.

المدينة، التاريخ، سبعة توقيعات للأساتذة.

في وقت لاحق، بعد إجراء العملية، ثبت من حوارات خاصة أنه لا يوجد أستاذ واحد، في الواقع، وجد أنه من الضروري إجراء العملية على الإطلاق، واعتقد الجميع أنَّ المرض يتقدم بشكل لا يتطلب عملية، ولكن لم يقل أحد هذا آنذاك، خلال اجتماع الأطباء التشاوري؛ الألماني الصامت وحده اقترح أنَّ العملية لم تكن ضرورية، ومع ذلك، لم يصر على رأيه بعد اعتراض الزملاء؛ وقد قيلَ أيضاً إنه بعد الاجتماع التشاوري، عندما ركب البروفيسور كوكوسوف، الذي غطّى الشعر عينيه، السيارة لكي يذهب إلى دار العلماء، قال للبروفيسور لوزوفسكي: «الحقيقة، لو كان أخي يعاني من مثل هذا المرض، لما أجريتُ له عملية»، ـ فردَّ عليه البروفيسور لوزوفسكي: ـ «نعم،

بالطبع، ولكن... لكن العملية آمنة»... ـ ضجَّت السيارة، ثم سارت. جلس لوزوفسكي بشكل مريح أكثر، وعدَّلَ ثنايا معطفه، وانحنى إلى كوكوسوف، وقال هامساً حتى لا يسمع السائق:

ـ إنه شخصية فظيعة، غافريلوف هذا، من دون انفعال، ومن دون كلام زائد، قال: ـ «هل تأمرونني أنْ أخلع ملابسي؟» كأنما يقول: «ألا ترون أني أعتقد أنَّ العملية لا ضرورة لها، ولكن، أيها الرفاق، إذا تجدون ذلك ضرورياً، أخبروني بالزمان والمكان الذي يجب أن أحضر فيه لإجراء العملية». لكنه قال ذلك بشكل دقيق ومختصر.

قال كوكوسوف:

ـ أجل، يا صديقي، أجل، لعلك تعرف، إنه بلشفي، لعلك تعرف، ما باليد حيلة.

في مساء ذلك اليوم، في الساعة التي احتشد فيها الآلاف من الناس في دور السينما والمسارح والعروض الكوميدية وفي الحانات والمطاعم، وفي الوقت الذي التهمت فيه السيارات المجنونة بِرَكَ الشوارع بمصابيحها، وهي تقطَع بهذه المصابيح على الأرصفة حشود الناس ذوي النزوات على ضوء المصابيح، في ذلك الوقت الذي كان فيه الممثلون في المسارح، يخلطون الزمان والمكان والبلدان، ويشبكون اليونانيين والآشوريين والعمال الروس والصينيين والجمهوريين من أمريكا والاتحاد السوفيتي، ويجعلون الجمهور بمختلف الطرق يحتدم غيظاً أو يصفق، ـ في تلك الساعة، ارتفع القمر الذي لم تكن المدينة

بحاجة إليه، ارتفع فوق المدينة، وفوق البِرَك، وفوق المنازل؛ وكانت الغيوم تسير بسرعة كبيرة، فيُخَيَل للناظر أنَّ القمر خائف، وفي عجلة من أمره، يركض، ويقفز من أجل أن يصل في الوقت المناسب إلى مكان ما، ولا يتأخر عن مكان ما. القمر الأبيض في السحب الزرقاء وفي ثقوب السماء السوداء.

في هذه الساعة، كان الرجل المنتصب الجلسة في المنزل رقم واحد لا يزال جالساً في مكتبه. كانت النوافذ مغلقة بالكامل بالستائر، وأشعِل الموقد مرة أخرى. تجمد المنزل في صمت وكأن هذا الصمت تراكم لقرون. كان الرجل جالساً على كرسيه الخشبي. الآن فُتِحَت أمامه كتب سميكة باللغتين الألمانية والإنكليزية، كان يكتب باللغة الروسية بالحبر بخط مستقيم من كتاب باللغة الألمانية. تلك الكتب التي فتحت أمامه كانت كتباً عن الدولة والقانون والسلطة.

في المكتب، سقط الضوء من السقف، فأصبح وجه الرجل الآن مرئياً: كان وجهه عادياً جداً، وربما قاسياً بعض الشيء، لكنه، على أيّ حال، شديد التركيز ولم يكن مُتعَباً بأي شكل من الأشكال. انكبَّ الرجل على الكتب وعلى دفتر الملاحظات وقتاً طويلاً. ثم دقَّ الجرس، فجاءت إليه كاتبة الاختزال. بدأ يملي عليها. كانت معالم كلامه هي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، أمريكا، إنكلترا، الكرة الأرضية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، جنيهات بريطانية وزِناتِ من القمح الروسي، الصناعات الثقيلة الأمريكية والأيدي العاملة

الصينية. كان الرجل يتكلم بصوت عالٍ وبحزم، وكانت كل عبارة من عباراته صيغة متكاملة.

كان القمر يسير فوق المدينة.

في تلك الساعة، كان الفريق، قائد الجيش، جالساً عند بوبوف في غرفة الضيوف في فندق كبير يسكنه الشيوعيون فقط الذين استقروا هنا في عام 1918، عندما كان ينبغي عليهم أنْ يبقوا بالقرب من بعضهم البعض وسط دخان الانتفاضات. كانت الغرفة كبيرة ومفروشة بأثاث غني، ولكنها، مثل جميع الغرف في جميع الفنادق، كانت تشير إلى الطابع الزمني المؤقّت، وإلى الطريق، وإلى جوهر الراحة المقيتة. كانوا ثلاثة ـ غافريلوف وبوبوف وناتاشا ابنة بوبوف البالغة من العمر عامين. كان بوبوف مستلقياً على الأريكة، وغافريلوف جالساً عند الطاولة، وناتاشا تدبّ على ركبتيه. أشعل غافريلوف عود ثقاب؛ فنظرت ناتاشا إلى النار باندهاش، لا يحدث إلا للأطفال عندما يندهشون من الأشياء الغامضة في العالم، وطوت شفتيها كالأنبوب ونفخت على النار، ولم يكن لديها على الفور ما يكفي من النَّفَس لإخماد نار عود الثقاب، ثم خفتَ عود الثقاب، لقد كان هناك الكثير من الدهشة والبهجة والخوف من الغموض في عَينَي ناتاشا الزرقاوَين لدرجة أنه كان لا بدّ من إشعال عود ثقاب جديد، ولا بدّ للمرء إلا أن ينحني برأسه للغموض الذي حملته ناتاشا نفسها. ثم وضع غافريلوف ناتاشا في الفراش، وجلس بجانب سريرها، وقال: «اغمضي عينَيك، وسأغني لك

أغنيات» ـ وبدأ يغني، من دون أنْ يقدر على الغناء، ولأنه لا يعرف أيَّ أغنية، اخترع أغنية على الفور:

جاء العنزُ، وقال:

«نامي، نامي، نامي، نامي»

ابتسم، ونظر بمكر إلى ناتاشا وإلى بوبوف وغنى ما جاء في ذهنه أولاً مما يتناغم مع الكلمات «نامي، نامي، نامي، نامي»:

جاء العنز، وقال:

«نامي، نامي، نامي، نامي...

لا تبولي، لا تبولي، لا تبولي، لا تبولي»...

فتحت ناتاشا عينيها، وابتسمت، فاستمر غافريلوف يغني هذين الشطرين الأخيرين بصوت خالٍ من مهارة الغناء (في الواقع، غنى بشكل سيّئ) حتى نامت ناتاشا.

ثم بدأ غافريلوف وبوبوف يشربان الشاي معاً. بوبوف بإبريق شاي أحمر، كُتِبَ عليه بالمينا البيضاء: «إلى الرفيق بوبوف من عمال وعاملات مصنع ليسفا بمناسبة الذكرى الخامسة لثورة أكتوبر». ذهب بهذا الإبريق إلى الغلاية في المطبخ لجلب الماء المغلي. ثم رتَّبَ على الجريدة أقداحاً وأطباقاً فيها الزبدة والجبن، وكان السكر في كيس، وفي كيس آخر ثمة خبز. سأل بوبوف: ـ «ألا تحب، يا نيكولكا، أنْ أطهو

لك عصيدة السميد؟».

جلسا مقابل بعضهما البعض، وتحدثا بصوت منخفض، وببطء، إذ لم يكونا في عجلة من أمرهما، وشربا الكثير من الشاي، شرب غافريلوف من صحن، وفكَّ أزرار ياقة قميصه العسكري. بعد أن تحدَّثا عن أشياء صغيرة حول هذا وذاك من الأمور، وعندما كانا يتناولان القدح الثاني من الشاي، وضع بوبوف القدح قبل أن يكمل شرب نصف ما فيه، وبعد وقفة قصيرة، قال:

ـ يا نيكولكا، تركتني زوجتي زينا، بعد أن ألقت الطفلة بين ذراعَي، وذهبت إلى مهندس كانت تحبه سابقاً، الشيطان يعرف ما هو من الرجال. لا أريد أن أحكم عليها، لا أريد أن أتسخ بالكلمات السيئة، لكن مع ذلك، يجب أن أقول، لقد هربت مثل العاهرة، واختبأت من دون أن تقول شيئاً. لا أريد أن أفكر أنها لم تحبني أبداً، ولكنها استغلَّت منصبي، ومع ذلك، حدث أنها هربت مني بسبب جوارب الحرير، بسبب العطر، والبودرة. وأنا شخصياً أشعر بالخجل، فقد انتشلتها من الحفرة، في الجبهة، اعتنيت بها، وأحببتها، ودفأتُها دفء الرجال، مثل الأحمق، لكن تبين أنها خسيسة ـ لقد تغاضيتُ عن الشخص الذي عاش معي خمس سنوات.

وتحدث بوبوف بالتفصيل عن كل سفاسف الأمور الصغيرة للتناقض، والتي دائماً ما تكون مؤلمة جداً على وجه التحديد بسبب تفاهتها، تلك التفاهة، والضآلة التي تحجب رؤية الكثير من الأمور المهمة

خلفها. ثم بدآ يتحدثان عن الأطفال، وتحدث غافريلوف عن زوجته، التي كبرت الآن ولكنها مع ذلك بقيت المرأة الوحيدة مدى الحياة بالنسبة لغافريلوف. وتحدثا مدة طويلة عن ناتاشا، التي لا يستطيع بوبوف التعامل معها كما ينبغي مهما سعى، ولا يعرف كيف يجلسها على النونية لكي تتبول، ولا يعرف كيف يهدهد لها كي تنام. ثم عرض بوبوف كتب ـ إليزافيتا فودوفوزوفا(6)، ومُونتِيسُورِي(7)، وبينكفيتش(8)، ونشر يديه ولسان حاله يقول: «ما عساي أنْ أفعل»، وشربا الشاي طوال الوقت بارداً.

استعجل القمر في حركته فوق المدينة. في الوقت الذي فرغت فيه شوارع المدينة كي يرتاح الناس في الليل، وصاحت الديوك الأولى في القرى، وفي الوقت الذي أوى فيه الناس (أزواج وزوجات، وعشاق وعشيقات) إلى الفراش، وهم يمضغون العشاء، ويستعيدون انطباعات النهار والأقوال المأثورة الذكية عن هذا اليوم، في هذا الوقت بالذات خرج غافريلوف من عند بوبوف.

ـ أعطني شيئاً لأقرأه، ولكن، في الحقيقة، أريد شيئاً بسيطاً، عن الناس الطيبين، عن الحب الصالح، عن العلاقات البسيطة، عن الحياة غير المعقَّدة، عن الشمس، عن الناس والبهجة البشرية الهيّنة.

لم يجد عند بوبوف مثل هذا الكتاب.

قال غافريلوف مازحاً:

ـ لديَّ هناك الكثير من الأدب الثوري. لكن، لا بأس، سأقرأ تولستوي مرة أخرى. لديه شيء جيد جداً عن قفازات قديمة في حفلة راقصة.

استولت كآبة على غافريلوف، وصمتَ، ثم قال بهدوء:

ـ لم أخبرك، يا أليوشكا، حتى لا نضيِّع الوقت في أحاديث فارغة. اليوم كنتُ عند القيادة وفي المستشفى مع الأساتذة. عقلية الأساتذة ذُوِّبَت. لا أريد أن أبارز أحداً، ففطرتي ضد هذا. غداً ينبغي عليَّ أنْ أرقد تحت شفرة السكين. عندئذ تعالَ إلى المستشفى ولا تنسَ الأيام الخوالي. لا تكتب أيَّ شيء لأولادي وزوجتي. الوداع!

وغادر غافريلوف الغرفة من دون أنْ يصافح بوبوف.

كانت سيارة مسقوفة تقف خارج الفندق. جلس غافريلوف في السيارة وقال: «إلى المنزل، إلى عربة القطار»، فسارت السيارة في الأزقة. انزلق القمر على جانبي مسارات قضبان السكة الاحتياطية. ركض كلب وصرخ واختفى وسط صمت السكة الحديدية السوداء. كان حارس يقف عند درج العربة، تجمد أثناء ما كان الفريق يمر. برز الجندي المرافق في الممر، ودسَّ الكومسري رأسه، (فتوهَّج نور الكهرباء في العربة) وساد صمت ريفي عميق واجمٌ في العربة. دخل الفريق، قائد الجيش، إلى غرفة النوم، وخلع جزمته، وانتعل خفَّه الليلي، وفك أزرار ياقة قميصه العسكري، وطلب الشاي. دخل الصالة، وجلس إلى جانب مصباح الطاولة، أحضر الكومسري الشاي، لكن الفريق لم يمسه؛ انكبَّ الفريق مدة طويلة على كتاب (تولستوي)

«الطفولة والصبا»، يقرأ، ويفكر في الكتاب. ثم ذهب القائد إلى غرفة النوم، وأحضر دفتراً كبيراً، ودقَّ الجرس، وقال للجندي المُكَلَّف بخدمته: ـ «هات دواة الحبر، من فضلك» ـ وبدأ يكتب ببطء، متفكّراً في كل عبارة يكتبها. كتب الرسالة الأولى، وأعاد قراءتها، وتأمَّل فيها، ووضعها في مظروف ولصقه. كتب الرسالة الثانية، وتأمَّل فيها، ولصقها. وكتب الرسالة الثالثة، كانت قصيرة جداً، كتبَها على عجل، ثم ختمها من دون أن يعيد قراءتها. خيَّم على العربة صمتٌ مُطبَق. تجمَّد الحارس عند المسند. وتجمد في الممر الكومسري والجندي المكلَّف بخدمة القائد. وبدا أنَّ الوقت قد تجمد أيضاً. ظلت الرسائل أمام الفريق مدة طويلة، في طرود بيضاء، عليها عناوين مكتوبة. ثم أخذ الفريق طرداً كبيراً ووضع الرسائل الثلاث فيه وختم عليها وكتب على الطرد: «يُفتَح بعد موتي». ونهض بتململ لكي يذهب إلى الفراش: خلع قميصه العسكري في غرفة النوم، وذهب ليغتسل قبل الذهاب إلى الفراش، وخلع ملابسه، واستلقى، وأطفأ الضوء. بقيت العربة لمدة ثلاث أو أربع ساعات في الظلام والصمت. كانت تلك ساعة صياح الديوك الأخيرة. ولو نظر الكومسري في ذلك الوقت في مقصورة الفريق، لكان قد رأى هناك، بشكل غير متوقع له، في المكان الذي كان يجب أن يكون فيه رأس الفريق، شعلةَ السيجارةِ الحمراء، أقول، بشكل غير متوقع له، لأن قائد الجيش عادة لا يدخّن...

ثم رن الجرس بحدة من القائد إلى الكومسري.

تحدث الفريق بصوت القائد العسكري:

ـ ارتَد ملابسك. واحضِر معطفي العسكري. واتصل بمرآب السيارات، ليحضروا لي سيارة سباق مفتوحة، ذات مقعدين، أنا سأقودها بنفسي. واتصِل بدار مجالس السوفييت، برقم بوبوف.

في الاتصال الهاتفي مع بوبوف، قال الفريق:

ـ يا أليكسي. سوف أمرّ عليك الآن. تعال إلى المدخل. غافريلوف يتحدث. لا تبطئ.

انطلقت سيارة السباق، ذات المقعدين، وذات المحرّك الذي بقوة مائة حصان، من مكانها في الحال على السرعة الثانية، كالمروحة، واستدارت، وألقت أمامها بحُزَم الضوء الأبيض. اندفع السائق إلى الجانب، إذ كان الفريق يجلس خلف عجلة القيادة، زأرت صفارة التنبيه، وسارت السيارة قاطعةً شظايا البِرَك، والأزقة، ولافتات المحلات والمؤسسات مُمَزِّقةً الرياح والفضاء. كان بوبوف يقف متحيّراً ناعساً. لا بدّ أنَّ السيارة قد مزّقت مطّاط الإطارات بشدة، بعد أن كبحت السرعة أمام دار مجالس السوفييت. جلس بوبوف في صمت. فانطلقت السيارة تاركةً خلفها الشوارع والأزقة وطبطبة البِرَك وأضواء المصابيح. وصار الهواء يتصلب أكثر فأكثر، وانفجرت الريح بعواء، وصفَّرت على السيارة، وأصبح الهواء جليدياً وشائكاً. كانت المصابيح الموجودة عند التقاطعات تلوّح بأنوارها، وتنقض وتندفع إلى الخلف مُهرولة، فأطلق رجال الشرطة صفّاراتهم واحداً بعد الآخر. لكن السيارة

قد أفلتت من أكداس المنازل والشوارع، وتجاوزت بوابة المدينة، في البداية سارت إلى المساحات الشاسعة من الأراضي البور ومرت بمصابيح الغاز القليلة على خطوط الترام، ثم إلى ظلام الحقول الأسود. فُتِحَت جميع السرعات. جُنَّ جنون الهواء والرياح، فكانت الرياح تقطع التنفس، وتعيقه. كانت جادة الطريق السريع أسفل السيارة قد اندمجت منذ مدة طويلة في وشاح أبيض مسطح، حيث لا يمكن للمرء رؤية المطبات أو أكوام الحجارة على طول حواف الجادة، إلا عندما كانت المنخفضات على الجادة كبيرة جداً فكانت السيارة تقفز من فوق الأرض وتطير عدّة قامات(9) في الهواء، فتضيع ضوضاء الحجارة المتطايرة من تحت الإطارات. مرة، ومرتين، وثلاث مرات، استقرت أضواء السيارة على جدران أكواخ قرية، وألقت بالأكواخ على الجانبين كالأغنام، وتركت القرية وراءها تغط في نباح الكلاب. وفي تجويف بين تلَّين، تشابكت أضواء السيارة في سُحِب ضباب الخريف الرمادية، وصار معلوماً أنَّ الضباب يمكن أن يطير ويصرخ ويندفع ويعوي بعاصفة ثلجية ويطعن الوجه بصرير زوبعة. فجلس غافريلوف، بعد أنْ انحنى على عجلة القيادة، وقاد السيارة بانتباه ودقة وحساب، وواصل السير إلى الأمام، وإلى لأمام، أقوى، وأقوى، وأسرع. كان بوبوف يجلس منذ مدة طويلة على أطرافه الأربعة في قعر السيارة، ويمسك يديه بشكل متشنج بقعر السيارة من دون أنْ ينظر إلى الخارج. وهكذا، في غضون أقل من ساعة، قطعت السيارة مسافة مائة فيرست. هناك، على حافة غابة عتيقة، فقدت السيارة سرعتها، وأنهِكَت، وسكتت،

فهدّأت من شدة الرياح والبرد، وعالجت الرذاذ المائل المندفع نحو الوجه في انحدار عمودي. فقد توقفت السيارة. جلس بوبوف في مكانه. فقال غافريلوف:

ـ أعطني سيجارة، يا أليوشكا.

أجاب بوبوف:

ـ لا بأس، يكفي هذه البهلوانيات، سقط كبدي كله إلى كعبي. هاك، دخّن، اللعنة عليك.

دخّنَ غافريلوف السيجارة، وانحنى إلى الخلف، مستريحاً على ظهره، وقال بتأمّل:

ـ عندما أكون متعَباً جداً، وعندما أجد ضبابية في ذهني، أستقل السيارة وأنطلقُ بها مسرعاً. هذا الاندفاع يعيدني إلى رشدي ويعيد أفكاري إلى ترتيبها. أتذكر كل واحدة من هذه الاندفاعات. وأتذكر كل شيء بأدق التفاصيل التي كانت في هذه الانطلاقات، كل الأحاديث، وكل العبارات، وحتى نغمة الصوت، قبل أن يشتعل عقب السيجارة. لدي ذاكرة سيئة، أنسى كل شيء ـ لا أتذكر حتى ما حدث في أهم أيام القتال ـ لقد أخبِرتُ بهذا الأمر لاحقاً. لكنني لا أتذكر هذه الانطلاقات على الإطلاق. كنت أقود السيارة الآن بجنون، باحتمال يصل إلى تسعة وتسعين بالمائة أنْ تتحطم، لكن كل تحركاتي دقيقة، ولا يمكن أن تتحطم. أنا ثمل ثمالة غير مفهومة من الدقة. لكن إذا ما تحطمنا،

سأكون بخير فقط. دعنا نتحدث الآن.

بإيماءة نشطة، ألقى غافريلوف بعقب سيجارته بعيداً، واستقام في جلسته على المقعد، وظلّ صامتاً، ربما، يستمع إلى نفسه ـ صمت صمتاً مهيباً في فخر.

قال غافريلوف بكل فخر:

ـ ومع ذلك، اصمت، سنتحدث بعد ذلك. اجلس! سنندفع بعد. أشعر أنني بخير، لأن هذا الاندفاع، وهذا الانطلاق هو ما يجب أن نعيش من أجله، وما نستحق العيش عليه، وهو ما نعيش من أجله. لقد قلنا لبعضنا البعض كل شيء من خلال حياتنا. اجلس! في بعض الأحيان يجب أن نكون صامتين!

طوت السيارة المسافة ـ في طريق العودة، ورفرفت الرياح، والوقت، والضباب، والقرى، وجعلت الضبابَ والوقتَ يرقصان، ويصرخان ويجريان من أجل إجبار بوبوف على أنْ يجلس على أطرافه الأربعة مرة أخرى، ويتمسك بيديه بأي شيء بأشد قوة، وأنْ يضيّق عينيه من هول الرهبة ويسقط كبده إلى الكعب.

من التل فوق المدينة، كان يمكن رؤية المدينة بأكملها لعدة لحظات، ـ هناك، في الأسفل، في الضباب، في الأضواء العاتمة وفي انعكاسات النيران، وفي الهدير والضوضاء البعيدين، بدت المدينة غير سعيدة للغاية.

اقتربت السيارة من مدخل المدينة في تلك الساعة، في ساعة الفجر الرمادية، عندما كانت صفارات المصنع تدق فوق المدينة.

---

(5) هذه الدائرة كانت بمثابة الجهاز الأمني أو الشرطة السرية في الاتحاد السوفيتي من عام 1923 إلى عام 1934. (المترجم).

(6) إليزافيتا نيكولاييفنا فودوفوزوفا (844 _ 1923): كاتبة ومعلمة وتربوية روسية، اشتهرت بكتابة قصص الأطفال والكتب التي تتناول تربية الأطفال وقصص السيرة الذاتية. (المترجم).

(7) مارِيَا ازتيميسا مُونْتِيشُورِي (1870 _ 1952) هِيَ طَبيبَة إيطالية ومُعَلّمة وفيلسوفة وعالِمة نفس، وطبيبَة نفسيَّة، ومُحاضرة، ورياضية. عُرِفت بِفلسفتِها بالتَّعليم التِي حملت اسمَها لاحِقاً. ركزت مونتيسوري في مدارسها على التغذية المناسبة، والنظافة، والسلوك، والتدريب الحسي. (المترجم).

(8) ألبرت بتروفيتش بينكفيتش (1884 _ 1937) _ تربوي روسي وسوفييتي، وطبيب أطفال ومنظم للتعليم العام وشخصية عامة. وهو المنظم والمدير الأول لمعهد بتروغراد التربوي الثالث (1918 _ 1920) وجامعة ولاية الأورال (1920 _ 1921). عميد جامعة موسكو الثانية (1926 _ 1930). دكتوراه في العلوم التربوية (1935)، أستاذ في مجال التربية. (المترجم).

(9) القامة (الساجين)، وحدة روسية قديمة لقياس الأطوال تعادل 2,13 متراً. (المترجم).

الفصل الثالث

وفاة غافريلوف

أول تساقط للثلج، وهو ذلك الثلج الذي يُخرجُ الأرض من الخريف إلى الشتاء، ويتساقط دائماً في الليل من أجل وضع الحدود بين وحل الخريف والضباب والرذاذ والأوراق المتساقطة وقمامة الشوارع التي كانت بالأمس ـ وبين نهار الشتاء الأبيض النشط، عندما تختفي جميع أنواع القرقعة والضوضاء، وعندما يحتاج الإنسان في صمت إلى أنْ يحزم أمره ويتأمّل في نفسه من دون أنْ يستعجل في الذهاب إلى أيّ مكان.

تساقط الثلج الأول في يوم وفاة غافريلوف. خيَّم على المدينة الصمت الأبيض، وشحبَ لونها، وهدأت. ونثرت طيور القرقف الثلج على الأشجار خارج النوافذ، بعد أنْ جاءت تطير من خلف المدينة مع الثلج.

اعتاد البروفيسور بافيل إيفانوفيتش كوكوسوف أنْ يستيقظ دائماً في الساعة السابعة صباحاً، وفي تلك الساعة نفسها استيقظ في يوم العملية. ـ أخرجَ الأستاذ رأسه من تحت البطانية، ونحنح ليخرج البلغم من حنجرته، ومد يده المشعرة إلى طاولة السرير الجانبية، وتلمَّسَ هناك كالعادة باحثاً عن نظاراته، وضعها على أنفه ودسّ زجاجها مرة أخرى في شعره. خارج النافذة، كان طائر القرقف يعبث في الثلج على

شجرة البتولا. لبس الأستاذ رداءه المنزلي، ووضع قدميه في شبشبه المنزلي، وذهب إلى الحمّام. كانت السقوف في شقة البروفيسور كوكوسوف منخفضة، وبسيطة. لا بدّ أنّ الأستاذ عاش في هذه الشقة ما يقرب من عشرين عاماً لأنه يجب على المرء أن يقضي وقت فراغه على الأقل لمدة عشرين عاماً لكي يمسح الغبار ويفركه بعناية، على الستائر التي اصفرّت، وعلى اللوحات التي بهتت ألوانها، وعلى الكتب المجلّدة، ولكي يقعِّر الأريكة، ولكي يُسَوّي كل شيء في المنزل وفي المكتب إلى الحدّ غير اللازم، ـ من الولاعة المنقوش عليها اسمه (هدية من الطلاب)، ومن قلم الحبر البالي الذي يستعمله للكتابة، المغطى بجلد الغزلان والمصنوع في شكل ساق غزال (ذكرى من سويسرا)، وحتى نونية التبول الليلي تحت السرير التي تقشّرَ طلاء المينا منها. كان الهدوء يعمّ المنزل في الساعة التي استيقظ فيها الأستاذ، ولكن عندما خرج من الحمام وهو ينحنح، كانت زوجته يكاترينا بافيلوفنا في غرفة الطعام تثير ضوضاء بملعقة صغيرة، وهي تحرك السكر في شاي الأستاذ، وكان السماور يخفق في غرفة الطعام. خرج البروفيسور لتناول الشاي في ردائه المنزلي وفي خُفّيه.

قالت زوجته:

ـ صباح الخير، يا بافيل إيفانوفيتش.

فقال الزوج:

ـ صباح الخير، يا يكاترينا بافيلوفنا.

قبّل الأستاذ يد زوجته، وجلس مقابلها، ورتب النظارات في شعره بشكل أكثر ملاءمة، فأصبحت تُرى من خلف زجاج النظارات عيناه الصغيرتان الودودَتان والماكرتان، الشبيهتان بعَينَي كاهن، الساذجتان والذكيتان في الوقت نفسه. ارتشف الأستاذ الشاي في صمت، استعداداً لقول شيء ما بعد ذلك. لكن الهاتف قطع مسار عادة تناول شاي الصباح. كان الهاتف في غير محله. نظر الأستاذ بصرامة إلى باب المكتب حيث كان الهاتف يرن، ونظر على نحو مريب إلى زوجته التي بدأت تشيخ، إلى هذه المرأة الممتلئة الجسم المرتدية ثوب الكيمونو الياباني، ـ نهض وذهب إلى الهاتف بارتياب. دخلت كلمات الأستاذ في الهاتف، ونُطقت بصوتٍ خرِفٍ على غير العادة، وبتبرّم:

ـ أجل، أنا أسمعك. مَن المتصل، وما الأمر؟

قال المتحدث عبر الهاتف إنه يتكلم من مقرّ الأركان، وإنهم في مقرّ الأركان يعرفون أنَّ العملية مقرر إجراؤها في الساعة الثامنة والنصف، ومَن في المقرّ يسألون عما إذا كانت ثمة حاجة إلى أي مساعدة، وهل من الضروري إرسال سيارة إلى الأستاذ. ـ ولكن الأستاذ غضبَ فجأة، وبدأ يتنفَّس بصعوبة في سماعة الهاتف، ويغمغم:

ـ... أنا، لعلكم تعرفون، أخدم المجتمع، وليس الأفراد، ـ أجل، لعلك تعرف، يا صديقي، ـ أنا أذهب إلى العيادات بواسطة الترام، يا، يا صديقي... أنا أقوم بواجبي، اسمح لي أنْ أقول، وفق ما يمليه ضميري. واليوم لا أرى أي سبب يمنعني من الذهاب بالترام.

أغلق الأستاذ الهاتف بصوت عالٍ، بعد أنْ قطع المحادثة، وبدأ يشخر، ويلهث، ثم عاد إلى الطاولة، وزوجته، وشرب الشاي. أطلق صوتاً كالشخير، وعض على شاربه وسرعان ما هدأ. ومرة أخرى، من خلف النظارات، صارت عيناه تُريان الآن مُرَكزَتَين وذكيَّتين. قال البروفيسور بصوت منخفض:

ـ الفلاح إيفان يتوعَّك في قرية «غُدران دراكينا»، وسوف يرقد على الموقد لمدة ثلاثة أسابيع، ويبقى يتأوّه، ويتشاور مع جميع أقاربه ثم يذهب إلى مستشفى مجالس الأرياف لرؤية الطبيب بيوتر إيفانوفيتش. بيوتر إيفانوفيتش يعرف إيفان منذ خمسة عشر عاماً، وعلى مدار الخمسة عشر عاماً هذه، حمل إيفان إلى بيوتر إيفانوفيتش دزينة ونصف من الدجاج، وتعرّف على جميع أطفال بيوتر إيفانوفيتش، وحتى لو كان لديه صبي واحد، لشدّه من أذنه. سيأتي إيفان إلى بيوتر إيفانوفيتش، ويركع كالدجاجة. سوف يفحصه بيوتر إيفانوفيتش، ويستمع إليه، وإذا لزم الأمر، يجري له عملية بهدوء، ومن دون عجلة، وبوضوح، وليس أسوأ مما أفعل أنا. وإذا لم تسر العملية على ما يرام، سيموت إيفان، وسيضعون صليباً على قبره، وبهذا سوف ينتهي كل شيء... أو حتى سيأتي إليّ المواطن أناتولي يوريفيتش سفينيتسكي. وسيتحدث بكل شيء إلى درجة الإرهاق. سوف أفحصه وأعيد فحصه سبع مرات، وسوف أفهم حالته وأقول له: ـ اذهب، كما يُقال، يا صديقي... وإذا ما قال لي «اعمل لي عملية» ـ سأفعل، إذا لم

يرغب أن أعملها، فلن أفعلها أبداً.

صمتَ البروفيسور قليلاً.

ـ ليس ثمة ما هو أسوأ، يا يكاترينا بافيلوفنا، من اجتماع الأطباء التشاوري. لا أريد أنْ أسيء إلى أناتولي كوزميتش. وأناتولي كوزميتش لا يريد أن يسيء إليّ. نقول كلمات مجاملات لبعضنا البعض ونستعرض عملية كل واحد منا، ولكن المريض لا يعرف ما دخل هذا. إنها تشبه المحاكمات البلشفية الشكلية، استعراض بمصاحبة الموسيقى، ـ لا أحد يعرف المريض بشكل صحيح، ـ «ألا ترى، يا أناتولي كوزميتش، ألا ترى، يا سيد شيمان»...

صمتَ البروفيسور قليلاً.

ـ اليوم أنا بصفة الجراح المساعد، عندنا في المستشفى أثناء إجراء عملية جراحية لأحد البلاشفة، للفريق غافريلوف.

قالت يكاترينا بافيلوفنا:

ـ هذا هو الذي... الذي.. إذاً، في الصحف البلشفية... اسم يثير الرهبة!
ـ لماذا لا تعمل له العملية أنت بنفسك، يا بافيل إيفانوفيتش؟

أجاب الأستاذ:

ـ في الحقيقة، لا يوجد شيء فظيع على وجه الخصوص، بالطبع، أمّا لماذا لوزوفسكي، فلأنّ طبيعة الزمن الآن هكذا، الشباب في الموضة،

ويجب أنْ يُدفَعوا إلى الأمام. ومع ذلك، في النهاية، لا أحد يعرف المريض بعد كل هذه الاجتماعات الاستشارية، على الرغم من أنه قد جُسّ وفُحِصَ ونُظِّفَ، وفحصه جميع الأطباء المشاهير لدينا. والأهم من ذلك كله، أنهم لا يعرفون الرجل، ولا يتعاملون مع الرجل شخصياً، إنما يتعاملون مع الصيغة، ـ الرقم العام كذا وكذا. وما يُكتَب عنه في الصحف كل يوم، فمن أجل زرع الخوف في الناس. وجرِّب أنْ تجري العملية بطريقة خاطئة إلى حدٍّ ما، فستُمسَح بك الأرض، وسوف تنسى اسم والدك.

غضبَ البروفيسور مرة أخرى، وبدأ يلهث، ويطلق أصواتاً كالشخير، ثم خبأ عينيه في شعره، وقام من على الطاولة، وصرخ في الباب المؤدي إلى المطبخ: ـ «يا ماشا، احضري الحذاء!» ـ وذهب إلى المكتب لارتداء ملابسه. مشَّطَ حاجبيه، ولحيته، وشاربه، وصلعته، ثم ارتدى سترة «فراك» السوداء الطويلة الرسمية، ودسَّ منديلاً جديداً في الجيب الخلفي للسترة، وانتعل الجزمة ذات المقدم المصقول واللامع والسيقان الحمراء، ونظر من النافذة: هل وصل الحصان. لقد رأى الحصان بالفعل عند الباب الأمامي، والحوذي إيفان، الذي عاش مع الأستاذ كوكوسوف في المطبخ لمدة عشرين عاماً، يمسح الثلج من المقعد بحركة سريعة من يده.

لم تكن غرفة البروفيسور أناتولي كوزميتش لوزوفسكي تشبه شقة كوكوسوف. فإذا ما كانت شقة كوكوسوف قد حفظت في طيتها مظهر

مطلع التسعينيات (من القرن التاسع عشر) والتسعمائة من السنوات الروسية، فإنَّ غرفة لوزوفسكي قد أنشِئت وحُفِظَت في السنوات من ألف وتسعمائة وسبعة إلى ألف وتسعمائة وستة عشر. كانت فيها ستائر ثقيلة، وأريكة واسعة، ونساء عاريات من البرونز بمثابة شمعدانات على طاولة كتابة من خشب البلوط، والجدران مغطاة بالسجاد وعُلِّقَت فوق السجاد لوحات من الصنف الثاني من معارض «عالم الفنون». كان لوزوفسكي ينام على الأريكة، وليس بمفرده، بل مع امرأة شابة جميلة؛ كانت جبهة قميصه المنشاة تتدلى على السجادة المفروشة على الأرض. استيقظ لوزوفسكي، وقبَّلَ كتف المرأة بهدوء، ونهض بنشاط، وشدَّ شريط الستارة. فزحفت الستارة ذات القماش الثقيل إلى الزاوية، ودخل الغرفة ضوء النهار الثلجي. نظر لوزوفسكي إلى الشارع نظرة فرح، لا ينظر مثلها إلا مَن أحبَّ الحياة في حد ذاتها حباً جماً، ونظر إلى الثلج، وإلى السماء، باهتمام، كما يفعل العزاب في الصباح، ثم جال بصره في الغرفة ـ وقبل أنْ يذهب للاستحمام، في البيجامة وفي الخف الجلدي المنزلي المطلي باللك، بدأ ينظف الغرفة، فرفع عن الطاولة ما كان عليها، ووضع زجاجة النبيذ الأحمر التي لم يُشرَب كلّ ما فيها على خزانة الكتب، ووضع آنية فيها بسكويت في خزانة الكتب، على الرف السفلي، ثم وضَّبَ على الطاولة منفضة السجائر، والمحبرة، ودفاتر الملاحظات، والكتب. ووصَّل سلك الغلاية الكهربائية في القابس، وهالَ القهوة في الغلاية، كانت المرأة نائمة، وكان من الواضح أنَّ هذه المرأة من مرتبة النساء اللائي يعشقن الحب ويستسلمن للحب

بهدوء وإخلاص. قالت، وهي تستيقظ:

ـ يا عزيزي.

ثم فتحت عينيها بسعادة، ورأت النهار الشتوي المبهج، ورأت الثلجَ على الأشجار، فنهضت من السرير، طوت يديها على هيئة الصلاة، وصرخت بسعادة:

ـ يا حبيبي، أول تساقط للثلج، إنه الشتاء، يا حبيبي...

وضع البروفيسور يديه البيضاوَين الكبيرتين على أكتاف المرأة، وأمالَ رأسها عليه، وقال:

ـ نعم، نعم، إنه الشتاء، يا ربيعي، يا زنبقة الوادي...

في هذا الوقت رن جرس الهاتف. كان هاتف الأستاذ معلّقاً فوق الأريكة، على السجادة. أجاب الأستاذ على الهاتف: «نعم، نعم، أسمعك». كان المتصل من مقرّ الأركان، ويسأل عما إذا كان من الضروري إرسال سيارة للأستاذ.

أجاب الأستاذ:

ـ نعم، نعم من فضلك! لا داعي للقلق بشأن العملية، أنا متأكد من أنها سوف تُجرى بكل براعة. بالنسبة للسيارة ـ من فضلك ـ خاصة وأنَّ عليَ أنْ أقضي بعض الأعمال قبل إجراء العملية. نعم، نعم، من فضلك، عند الساعة الثامنة.

أغلق الأستاذ الهاتف وقال للمرأة بفرح وفخر:

ـ يا زنبقة الوادي، ارتدي ملابسك، ستأتي سيارة من أجلي، سوف آخذك في نزهة ثم أوصلك إلى المنزل. هيا، أسرعي!

ثم عانق المرأة، ووضع رأسه على كتفها، كما يفعل الناس السعداء.

لقد كانت الساعة آنذاك الثامنة إلا ربعاً. أسرع الرجل والمرأة، بكل سعادة، بارتداء ملابسهما. سكب البروفيسور، وهو يرتدي الملابس، القهوة في قدحين صينيين صغيرين. شدّت المرأة وهي تبتسم بسعادة زرّ ياقة قميصه المنشاة. قبل مغادرته المنزل، اتصل البروفيسور، بوجه وقور وبشيء من الخوف المهيب، بالهاتف: فقد اخترق الأستاذ، بكل أنواع الطرق الهاتفية الملتوية، شبكة الهاتف تلك، التي لم يكن بها سوى ثلاثين أو أربعين سلكاً؛ اتصل بمكتب الدار رقم واحد، وسأل باحترام عما إذا كانت ثمة أيّ أوامر جديدة، فعرض عليه صوت صارم في سماعة الهاتف أن يأتي على الفور بعد العملية مع تقرير عنها. فقال الأستاذ: «سيحصل كل خير، سوف أفعل ذلك»، ـ انحنى أمام سماعة الهاتف ولم يعلّقها على الفور. كانت السيارة في هذا الوقت تطلق صوت المنبه أمام المدخل.

في صباح يوم العملية، جاء بوبوف إلى غافريلوف، قبل بدء العملية. حدث ذلك، حتى قبل أنْ ينبلج الفجر، تحت ضوء المصابيح، لكن لم يتحدّثا عن أيّ شيء، لأنّ الممرضة أخذت غافريلوف إلى الحمام لوضع آخر حقنة شرجية. قال غافريلوف وهو يغادر إلى الحمام:

ـ اقرأ، يا أليوشا، لدى تولستوي في كتابه الحصان اللائق وغير اللائق. فقد شعر الرجل العجوز بالدم على نحو جيد.

كانت هذه الكلمات الأخيرة التي سمعها بوبوف من غافريلوف قبل أن يموت.

مشى بوبوف إلى منزله وسط حفيف صمت الفجر المصقع، ـ مشى ليس في الشارع الرئيس، بل خرج إلى زقاق، نحو الجرف، الذي انفتح خلفه امتداد النهر الشاسع، وهناك في الأفق كان القمر يحتضر خلف الثلج في الضباب الأزرق، ـ وتوهّج الشرق بلون أحمر، قرمزي، بارد. بدأ بوبوف في النزول إلى النهر من أجل أن يعبر إلى المدينة عن طريق الحقل، ـ وخلفه توهّج الشرق. في تلك اللحظة كان غافريلوف يقف بجانب النافذة، ينظر إلى ما وراء النهر، يا ترى، هل رأى بوبوف؟ في مريول المستشفى، في الحمام بجانب النافذة، وقف هناك الرجل، النساج في مصنع مدينة «أوريخوفو زويفو»، الذي ارتبط اسمه بالكثير من أساطير الحرب، بالآلاف من الأساطير، وبأساطير عشرات الآلاف ومئات الآلاف من الناس الذين ارتبط مصيرهم به، وبأساطير الآلاف، وعشرات الآلاف، ومئات الآلاف من حالات الموت، والمعاناة، والشلل، والبرد، والجوع، والجليد وحمّى الحملات. وارتبط اسمه بقصف المدافع، وبأزيز الرصاص، وبريح الليل، وبمشاعل النيران التي تُوقَد في الليل، وارتبط بالحملات وبالانتصارات وبحالات الهروب، ومن ثم ارتبط مرة أخرى بالآلاف من حالات الموت أيضاً. وقف الرجل بجانب

نافذة الحمام، ويداه مطويتان إلى الخلف، وجعل ينظر إلى السماء، كان ساكناً، ثم مد يده، وكتب على الزجاج المكسو بالضباب، ـ «الموت، الحقنة الشرجية، أمرٌ غير لائق» ـ وبدأ في خلع ملابسه.

قبل العملية، كان الناس يسيرون على عجل في الممر من غرفة العمليات إلى ردهة غافريلوف، وهم يتهامسون ويندفعون بلا ضوضاء. وفي المساء الذي يسبق العملية، أُدخِل لغافريلوف في المريء بواسطة خرطوم عازل، سيفون، لتُسحَب من خلاله عصارة المعدة ومن ثم غسلها، ـ هذه الآلة الصمغية بعد استعمالها تجعل المرء يشعر بالغثيان وتسبّب له الاكتئاب وكأن هذه الأداة وجِدَت من أجل إهانة كرامة الإنسان. وفي صباح اليوم السابق للعملية، وضِعَت له الحقنة الشرجية للمرة الأخيرة. جاء غافريلوف إلى غرفة العمليات مرتدياً مريول المستشفى، وبنطلوناً من الكتان الخشن، أُعطيَ له في المستشفى، وقميصاً (القميص به أربطة بدلاً من الأزرار)، وينتعل خفَّ المستشفى، الذي هو أكبر من قياسه برقم، من دون جوارب (غُيِّرَت لغافريلوف البياضات هذا الصباح للمرة الأخيرة، وارتدى ملابس معقَّمة)، وصلَ إلى غرفة العمليات شاحباً، نحيفاً، مُنهَكاً. ـ في غرفة ما قبل العملية، كانت مصابيح الكحول تصخب، وصناديق النيكل الطويلة تغلي، وكان الأشخاص الذين يرتدون مراييل بيضاء صامتين. كانت صالة العمليات عبارة عن غرفة كبيرة جداً، وكل شيء فيها ـ الأرضية والجدران والسقوف ـ مطلي بطلاء زيتي أبيض. كانت غرفة العمليات مشرقة بشكل غير عادي، لأن أحد الجدران كان بمثابة نافذة متصلة، وهذه

النافذة تطل على ما وراء النهر. في منتصف الغرفة امتدت طاولة عمليات بيضاء طويلة. في هذا المكان التقى كوكوسوف ولوزوفسكي بغافريلوف. كان كوكوسوف ولوزوفسكي يرتديان مرايل بيضاء ويعتمران أغطية رأس بيضاء، كأنهما طاهيان، وبالإضافة إلى ذلك شدً كوكوسوف لحيته بمنديل، من ذلك النوع الذي يوضَع على صدور الأطفال ليحمي ملابسهم من اللعاب، تاركاً عينيه الغارقتين في الشَّعر. وقف عشرات الأشخاص في أردية بيضاء على طول الجدار. دخل غافريلوف إلى الغرفة مع المعينة. انحنى بسَكينة وبصمت للأساتذة وسار إلى الطاولة، نظر من النافذة إلى ما وراء النهر، وهو يطوي ذراعيه على ظهره. ثم جاءت المعينة الثانية تحمل على خطافات معقِّماً يغلي فيه أدوات الجراحة، وهو عبارة عن صندوق طويل من النيكل.

سأل لوزوفسكي كوكوسوف هامساً:

ـ ألا نبدأ، يا بافيل إيفانوفيتش؟

أجاب كوكوسوف:

ـ أجل، لعلك تعرف...

وذهب الأساتذة ليغسلوا (مراراً وتكراراً) أيديهم، وليسكبوا عليها كلوريد الزئبق، ويمسحونها باليود. تفحَص طبيب التخدير الكمّامة ولمس زجاجته.

قال لوزوفسكي:

ـ أيها الرفيق، غافريلوف، هيّا، لنبدأ. لو سمحت، أن تتفضل بالاستلقاء على الطاولة. اخلع الخفّين.

نظر غافريلوف إلى الممرضة بارتباك قليل جداً، وشد قميصه، فنظرت الممرضة إلى غافريلوف كما تنظر إلى شيء، وابتسمت كما يبتسم المرء لطفل. جلس غافريلوف على الطاولة، وألقى أحد خُفّيه، ثم ألقى الآخر، واستلقى بسرعة على الطاولة، وعدّل الوسادة تحت رأسه، ثم أغمضَ عينيه. وبعد ذلك، بسرعة، كالعادة وببراعة، شدّت الممرضة الأحزمة على ساقيه، وربطت الرّجل على الطاولة. وضع طبيب التخدير منشفة على عينيه، ودهن أنفه وفمه بالفازلين، ووضع الكمامة على وجهه، وأخذ يد المريض ليستمع إلى نبضه ـ وصب الكلوروفورم على القناع، فانتشرت رائحة الكلوروفورم القابضة الحلوة في الغرفة. حدد طبيب التخدير ساعة بدء العملية. فابتعد الأساتذة نحو النافذة في صمت. وبدأت الممرضة ترتّب بالملقط المعقّم المباضعَ والمناديل المعقّمة واللفائف والمِقاص والملاقط والإبر وخيوط الحرير وتنشرها على قطع من الشاش. أضاف طبيب التخدير الكلوروفورم. فوَجَمَ الصمتُ على الغرفة. ثم هز المريض رأسه وتأوه.

قال غافريلوف واصطكّت أسنانه:

ـ أكاد أختنق، ليس ثمة ما أتنفس منه، انزعوا الضمادة.

أجاب طبيب التخدير:

ـ انتظر قليلاً، من فضلك.

وبعد أنْ مضت دقائق قليلة بدأ المريض بالغناء والتحدث.

ـ انقضى الجليد، وتكسَّر الثلج على نهر الفولغا، وانشقَّ النهر، يا حبيبي الذهبي، أيها الذهبي، أنا، الصبية الصغيرة، وقعتُ في الحب، ـ غنّى قائد الجيش وهمس: ـ وأنتِ، نامي، نامي، نامي. ـ ثم توقف قليلاً، وقال بصرامة: ـ لا تعطوني هلام التوت البري مرة أخرى بعد، لقد سئمت منه، إنه ليس ملائماً. ـ ثم سكت قليلاً وصرخ بشدة، لا بدّ أنه هكذا كان يصرخ في المعارك: ـ لا تتراجع! ولا لخطوة واحدة! سأطلق النار... أليوشا، يا أخي، كل السرعات مفتوحة، الأرض لم تعد مرئية. أتذكرُ كل شيء. ثم إنّي أعرف ما الثورة، وأيّ قوة هذه. وإنّي لا أخشى الموت. ـ ومرة أخرى بدأ يغني: ـ نجارٌ يعيش وراء جبال الأورال، يا حبيبي الذهبي، أيها الذهبي...

سأل طبيبُ التخدير غافريلوفَ بصوت منخفض:

ـ كيف تشعر؟ ألا ترغب بالنوم؟

أجاب غافريلوف، بصوت عادي، وبصوت منخفض أيضاً، وبنغمة التآمر:

ـ لا شيء مميز، ليس ثمة ما يمكنني التنفس منه.

وأضاف الطبيب المخدر الكلوروفورمَ وقال:

ـ انتظر قليلاً.

نظر كوكوسوف بقلق إلى ساعته، وانحنى على الورقة الكئيبة، وأعاد قراءتها. هناك بعض الأجسام تشعر بفرط الحساسية تجاه بعض المواد المخدِّرة ـ خُدِّرَ غافريلوف لمدة سبع وعشرين دقيقة. استدعى كوكوسوف المساعد الصغير، وقرَّب إليه وجهه ليعدّل المساعدُ النظارات على أنف البروفيسور. همس الطبيب المخدِّر بقلق إلى لوزوفسكي:

ـ ربما، نترك الكلوروفورم جانباً، ونجرب الأثير؟

أجاب لوزوفسكي:

ـ لنجرب الكلوروفورم مرة أخرى. وبخلاف ذلك، سيتعين تأجيل العملية. الوضع غير مريح.

نظر كوكوسوف بصرامة من حوله، ونكّس بصره بقلق. وأضاف الطبيب المخدِّر الكلوروفورم. وبقي الأساتذة صامتين. ـ غافريلوف نام بشكل نهائي في الدقيقة الثامنة والأربعين. عند ذاك فرك الأساتذة أيديهم بالكحول للمرة الأخيرة. وكشفت الممرضة بطن غافريلوف، فبرزت على الضوء أضلاعه الرفيعة وبطنه المشدودة. فركَ البروفيسور كوكوسوف منطقة العملية (المنطقة الشرسوفية) بالكحول والبنزين واليود فركاً شديداً بلمسات واسعة. وأحضرت المعينة شراشف لتُغطي

بها ساقَي غافريلوف ورأسه. وسكبت الممرضة نصف علبة من اليود في يدَي البروفيسور لوزوفسكي. أخذ لوزوفسكي المشرط ومرّرَه على الجلد. تناثر الدم، وانتشر الجلد على الجانبين؛ وخرج من تحت الجلد الشحم الأصفر، الشبيه بالشحم الموجود في لحم الضأن، يرقد على شكل طبقات، مع طبقات من الأوعية الدموية. قصّ لوزوفسكي اللحم البشري مرة أخرى، وقصّ الصفائح، اللامعة، البيضاء، ذات الطبقات من العضلات الأرجوانية. سوّى كوكوسوف بحذاقة بالغة الأوعية التي نزفت بشكل غير متوقع له وضغط عليها باللفافات وشدَّ عليها المقارص. وبشفرة أخرى، قطع لوزوفسكي مثانة الصفاق. ترك لوزوفسكي المِبضَع ومسح الدم بمناديل معقمة. كان يمكن للمرء أنْ يرى في الشق الداخلي الأمعاءَ وكيسَ المعدة الأزرق اللبني. خفض لوزوفسكي يده في الأمعاء، وقلّبَ المعدة، وعجنها. ونظر إلى الموضع على لحم المعدة اللامع، الذي كان من المفترض أن تكون فيه القرحة. كان الموضع أبيضَ، كما لو كان منحوتاً من الشمع، مثل وجه خنفساء الروث ـ كانت ثمة ندبة تشير إلى أنَّ القرحة قد شُفيت بالفعل ـ مما يشير إلى أنّه لم تكن هناك حاجة إلى إجراء العملية. لكن في هذه اللحظة، أجل، في هذه اللحظة بالذات ـ في الوقت الذي كانت فيه معدة غافريلوف في يد البروفيسور لوزوفسكي... صاح الطبيب المخدر:

ـ النبض! النبض!

بدا أنّ كوكوسوف يوافق آلياً على ما قاله الطبيب المخدر، وصاح:

ـ التنفس!

وبعد ذلك كان من الممكن للمرء أن يرى من وراء الشَّعر ومن خلف النظارات كيف جحظت عينا كوكوسوف الشريرتان للغاية، وامتدتا إلى الخارج وانتشرتا على الجانبين، وعينا لوزوفسكي، القابعتان في زوايا تجويف العين، ضغطتا على جسر أنفه، وضاقتا أكثر، وأدبرتا في العمق أكثر، وركَّزَتا، ثم اندمجتا في عين واحدة، حادة بشكل رهيب. لم يكن لدى المريض أي نبض، لم ينبض قلبه ولم يكن يتنفس، وبردت ساقاه. كانت تلك صدمة قلبية: الجسم الذي لم يتقبّل الكلوروفورم قد تسمم بالكلوروفورم. كان الأمر يشير إلى أنّ الرجل لن ينهض إلى الحياة أبداً، ولا بدّ أنه سوف يموت، وأنه ـ مع التنفس الاصطناعي، والأوكسيجين، والكافور، والمحلول الفسيولوجي (محلول كلوريد الصوديوم) ـ يمكن تأجيل الوفاة النهائية لمدة ساعة أو عشر ساعات أو ثلاثين ساعة، لا أكثر. ولن يستعيد الرجل وعيه، ويمكن القول بأنّ الرجل، في الحقيقة، قد مات. كان من الواضح أنّ غافريلوف كان عليه أن يموت تحت شفرة السكين، على طاولة العمليات. ـ أدار البروفيسور كوكوسوف وجهه إلى المُعِينة، ودفعه إلى الأمام، حتى تعدّل له المعينة وضعية النظارات. ثم صرخ البروفيسور:

ـ افتحوا النافذة! أحضروا الكافور! حضّروا المحلول الفسيولوجي!

خيّم الوجوم أكثر على الحشد الصامت من المساعدين. انحنى

كوكوسوف على الأدوات الموجودة على الطاولة، كما لو لم يحدث شيء، وتفحصها، وظلَّ صامتاً. وكذلك انحنى لوزوفسكي بالقرب من كوكوسوف.

قال لوزوفسكي بصوت مهموس وبحنق:

ـ يا بافيل إيفانوفيتش.

فردَّ عليه كوكوسوف بصوت عالٍ:

ـ ماذا؟

فقال لوزوفسكي بصوت منخفضٍ أكثر، ولم يعد بحنق:

ـ يا بافيل إيفانوفيتش.

ـ ماذا؟ ـ ردَّ عليه كوكوسوف بصوت عالٍ وقال: ـ واصلوا العملية!

استقام الأستاذان، ونظرا إلى بعضهما البعض، اندمجت عينا أحدهما في عين واحدة، والآخر جحظت عيناه من الشعر. انحرف لوزوفسكي للحظة عن كوكوسوف، كما لو انحرف عن ضربة، كما لو كان يريد أن يجد الأفق، وقد انشطرت عينه، وزاغت ـ ثم اندمجت بشكل أوضح وأكثر حدة، ـ فهمس لوزوفسكي:

ـ يا بافيل إيفانوفيتش!

ووضع يديه على الجرح: لم يخيّط، بل سَرَّج التجاويف بالخياطة، وعصر الجلد وبدأ يرفأ أغطيته العلوية فقط. وأمرَ:

ـ أطلقوا اليدين ـ تنفس اصطناعي!

كانت النافذة الضخمة في غرفة العمليات مفتوحة، فدخل صقيع الثلج الأول إلى الغرفة. وحُقِنَ الرجل بالكافور. ثنى كوكوسوف، بمساعدة طبيب التخدير، ذراعَي غافريلوف ورفعاهما، مما أجبره على التنفس بشكل مصطنع. رتق لوزوفسكي الجرح. ثم صاح (لوزوفسكي):

ـ المحلول الفسيولوجي!

فأدخلَت المساعِدة في صدر الرجل إبرتين غليظتين، سمكهما تقريباً بمقدار شمك السيجارة، من أجل صب ألف مكعب من الملح السائل في دم الرجل الميت من خلالهما للحفاظ على ضغط الدم. كان وجه الرجل أزرقَ هامداً، وشفتاه صارتا بلون البنفسج.

ثم فُكَّ غافريلوف من طاولة العمليات، ووضِعَ على منضدة ذات عجلات، ونُقِل إلى ردهته. كان قلبه ينبض، وجعل يتنفس، لكن وعيه لم يعد إليه، وربما لم يعد إليه حتى اللحظة الأخيرة، التي توقف فيها قلبه المحقون بالكافور والممَلَّح عن النبض على نحو مُصطَنع، بعد سبع وثلاثين ساعة، بعد أنْ تركه الكافور والأطباء ـ توفي: ـ ربما، لأنه حتى اللحظة الأخيرة لم يُسمح لأحد برؤيته، باستثناء هذين الأستاذين والمُمَرّضات، لكن قبل ساعة من الإعلان الرسمي عن وفاة الفريق غافريلوف ـ سمع جارٌ طارئ له في الردهة بين الحين والآخر أصواتاً غريبة في الردهة، كما لو أنَّ رجلاً كان ينقر هناك، كما ينقر السجناء في

السجون للتواصل. هناك، في الردهة، رقد، رقود الأحياء، رجلٌ ميت، حُقِنَ بالكافور، لأنَّ في الطب ثمة عادة أخلاقية بعدم السماح بموت الإنسان تحت مبضع الجرّاح ـ وحرسَ هذه الردهة الأساتذة بعناية لأنَّ الفريق، بطل الحرب الأهلية، بطل الثورة الروسية العظمى، الرجل الذي انتشرت عنه الأساطير، الرجل الذي امتلك الإرادة والحق في إرسال الناس ليقتلوا أشباههم في الخَلق ثم يموتوا، كان يحتضر في هذه الردهة.

لقد بدأت العملية آنذاك في الساعة الثامنة والثلاثين دقيقة ـ وأخرِجَ غافريلوف على الطاولة ذات العجلات من غرفة العمليات في الساعة الحادية عشرة واحدى عشرة دقيقة. وفي الممر، قال البواب آنذاك إنَّ البروفيسور لوزوفسكي استُدعِيَ إلى الهاتف مرتين من الدار رقم واحد ـ ومرة أخرى جاء البواب وقال إنَّ ثمة مَن ينتظر على الهاتف. ذهب لوزوفسكي إلى الهاتف. كان لوزوفسكي يتوقع مكالمة من الدار رقم واحد. فتناهى إليه صوتٌ عبر الهاتف: «يا عزيزي، اشتقتُ إليكَ»، فكشَّرَ لوزوفسكي عن أسنانه لمدة دقيقة، لا بدّ أنه أراد أن يقول عبارة غاضبة للغاية، لكنه لم يقل شيئاً، وأغلق الخط. ذهب البروفيسور إلى المكتب حيث كان الهاتف، ووقف عند النافذة، ونظر إلى الثلج الأول، وعض على أصابعه وعاد إلى سماعة الهاتف، ودخل في شبكة الهاتف، التي كانت تحتوي على ثلاثين أو أربعين سلكاً، وانحنى إلى سماعة الهاتف وقال إنَّ العملية سارت على ما يرام، لكن المريض كان ضعيفاً جداً وإنهم، أيِ الأطباء، أدركوا أنَّ حالته خطيرة، واعتذر عن عدم

تمكنه من الحضور الآن (إلى الدار رقم واحد). وفي الطابق العلوي، في الممر، بين غرفة العمليات وردهة المريض، حيث كان الناس في الصباح منهمكين ويتهامسون، لم تعد هناك الآن نسمة واحدة.

توفي غافريلوف ـ أي إنَّ البروفيسور لوزوفسكي غادر ردهة غافريلوف وهو يحمل ورقة بيضاء، وبعد أنْ نكّسَ رأسه، أعلن بحزن وعلى نحو مهيب أنَّ قائد الجيش المريض، المواطن نيكولاي إيفانوفيتش غافريلوف، للأسف الشديد، قد قضى نَحْبَهُ في الساعة الواحدة وسبع عشرة دقيقة.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، عندما حلّت الساعة الثانية ليلاً، دخلت سرايا من الجيش الأحمر إلى فناء المستشفى، ووقف الحراس على طول جميع الممرات والسلالم. ودخل إلى الردهة التي كانت فيها جثة الفريق ضباط الأركان الثلاثة أنفسهم الذين جاؤوا إلى المحطة للقاء قائد الجيش الأشخاص الثلاثة نفسهم الذين كان غافريلوف بالنسبة لهم ـ قائد تلك الآلة الضخمة الذي تُسمّى الجيش، والرجل الذي قاد حياتهم. الآن جاؤوا ليقودوا جثة القائد. في هذه الساعة كانت الديكة في الأرياف تصيح الصياح الثاني. في هذه الساعة، زحفت السحب عبر السماء، وأسرعَ خلفها البدر، الذي تعب من الحركة السريعة. في هذه الساعة، ركب البروفيسور لوزوفسكي في السيارة «رويس» المغلقة وانطلق في طريقه بشكل عاجل إلى الدار رقم واحد؛ دخلت السيارة «رويس» بصمت في البوابة ذات النسور، ومرت من جانب الحراس،

ووقفت عند المدخل، ففتح الحارس الباب؛ ذهب لوزوفسكي إلى غرفة المكتب، تلك التي كان فيها ثلاثة هواتف على القماش الأحمر لطاولة الكتابة، وخلف طاولة الكتابة على الحائط كانت تصطف فيها أزرار الأجراس مثلما تصطف السرية في الجبهة. المحادثة التي أجراها لوزوفسكي في هذا المكتب غير معروفة، لكنها استمرت ثلاث دقائق فقط؛ غادر لوزوفسكي المكتب، خرج من المدخل، ومن الفناء، على عجل شديد، وبسبب المعطف الذي كان يرتديه والقبعة التي في يديه بدا يشبه أبطال هوفمان(10)؛ لم تعد السيارة موجودة؛ فسار لوزوفسكي على قدميه متمايلاً كما لو كان مخموراً. كانت الشوارع مهجورة في هذه الساعة من ساعات الصمت في الليل، وحتى الشوارع تمايلت مع لوزوفسكي.

تمايلت مع لوزوفسكي الشوارعُ تحت القمر في بيداء الليل الساكنة. خرج لوزوفسكي (على طريقة أبطال هوفمان) من غرفة المكتب في الدار رقم واحد. وبقي في غرفة المكتب في الدار رقم واحد الرجل المنتصب في جلسته. كان الرجل يقف خلف طاولة الكتابة، وانكبَّ على الطاولة، متكئاً عليها بقبضتيه. كان رأس الرجل ناكساً. بقي ساكناً لا يتحرك مدة طويلة. انتزِعَ الرجل من صياغاته وأوراقه. ثم بدأ الرجل يتحرك. كانت حركاته مستطيلة وصيغوية، مثل الصيغ التي كان يمليها على كاتب الاختزال كل ليلة. بدأ يتحرك بسرعة كبيرة. قرع الجرس الذي خلفه، ورفع سماعة الهاتف. قال للمناوِب الخفير: «حضّر سيارة السباق المفتوحة». وقال في الهاتف للشخص الذي ينبغي أنْ يكون

نائماً، والذي كان واحداً من الثلاثي الرئيس الأول، وكان صوته ضعيفاً: ـ «أندريه، يا عزيزي، رحلَ عنّا شخصٌ آخر، فقد مات كوليا غافريلوف، لم يعد في الوجود رفيقنا في السلاح. اتصِل ببوتاب، يا عزيزي، نحن الملامان، أنا وبوتاب».

قال الرجل المنتصب في جلسته للسائق: ـ «اتجه إلى المستشفى». الشوارع لم تتأرجح. وفي السحب استعجل القمر الضوضائي، وانبسطت السيارة، مثل القضيب الرفيع، في الشوارع. أومض مبنى المستشفى، الأسود في الظلام، بنوافذه المضطربة. وكان الحراس يقفون في الممرات السوداء. احتفظ المنزل بالصمت التام، كما في أماكن الموت التي يتوجب على المرء فيها أن يحتفظ بالصمت. سار الرجل المنتصب في جلسته، في الممرات السوداء، إلى ردهة الفريق غافريلوف. وصل الرجل إلى الردهة، ـ كانت ترقد هناك جثة الفريق على السرير، فاح المكان هناك برائحة الكافور الخانقة. خرج الجميع من الردهة، وبقي في الردهة الرجل المنتصب في جلسته وجثة الرجل غافريلوف. جلس الرجل على السرير عند قدمي الجثة. كانت يدا غافريلوف ممدَّدَتين على طول جسده فوق البطانية. جلس الرجل بجانب الجثة مدة طويلة، منحنياً وصامتاً. عمَّ الصمت في الردهة. ثم أخذ الرجل يد غافريلوف وصافحه وقال:

ـ وداعاً، أيها الرفيق! وداعاً، يا أخي!

وغادر الردهة منكساً رأسه، من دون أن ينظر إلى أحد، وقال: ـ

«افتحوا كوة النافذة هناك، ليس ثمة هواء للتنفس»، وسرعان ما سار عبر الممر الأسود، ونزل الدرج.

في هذه الساعة كانت الديوك في الأرياف تصيح الصياح الثالث. ركب الرجل في السيارة بصمت. فأدار السائق رأسه ليسمع الأمر. بقي الرجل صامتاً. ثم عاد الرجل إلى رشده، وقال: ـ «إلى خارج المدينة! ـ بكل السرعات»...

اندفعت السيارة من مكانها بأقصى سرعة، كالمروحة، واستدارت، وألقت الأضواء ـ وسارت تقطع شظايا الأزقة، ولافتات المحلات، والشوارع. تصلَّب الهواء على الفور، ونفخ كالرياح العاتية، وصفَّر في السيارة. فتراجعت الشوارع والمنازل والأضواء إلى الوراء بسرعة هائلة ـ ولوَّحَت المصابيح بأضوائها، وحلَّقَت واندفعت بسرعة إلى الوراء. انطلقت السيارة بكل السرعات إلى خارج المدينة، كأنما تريد أن تنفلت من نفسها. وقد تلاشت فوانيس عربات ترام الضواحي، وتبعثرت أكواخ القرية مثل الأغنام عند نباح الكلاب. لم يعد الطريق يُرى، وكان ضجيج العجلات يختفي بين الحين والآخر، في تلك اللحظات التي تطير فيها السيارة في الهواء... الهواء، والرياح، والوقت والأرض ـ كل ذلك كان يصفِّر، ويزعق، ويعوي، ويقفز، ويندفع: وفي هذا الاندفاع الهائل، عندما كان كل شيء يندفع، لكن بلا حراك سوى القمر خلف الغيوم، وهذه السيارة، والرجل الجالس بهدوء في السيارة بلا حراك، الذين بقوا يمشون جنباً إلى جنب.

عند حافة الغابة تلك التي كان فيها غافريلوف وبوبوف قبل أيام قليلة، قال الرجل آمراً: «توقف!» ـ فكسرت السيارة السرعة، تاركة المكان والزمان والرياح التي لا لزوم لها، ـ بعد أنْ أوقفت الأرض وطاردت القمر خلف الغيوم. لم يكن الرجل يعرف أنَّ غافريلوف كان بالقرب من هذه الغابة ـ قبل بضع ليالٍ. نزل الرجل من السيارة وسار ـ بصمت وببطء ـ إلى الغابة. تجمدت الغابة في الثلج، وأسرع القمر فوقها بحركته. لم يكن لدى الرجل من يتحدث إليه... لم يعد الرجل من الغابة بسرعة. قال عند عودته إلى السيارة:

ـ هيّا، لنعد. ولكن لا تسرع.

اقتربت السيارة من المدينة عندما حلَّ الفجر. طلعت الشمس حمراء، قرمزية، باردة في الشرق... كانت المدينة ترقد هناك، في الأسفل، في الضباب البنفسجي والأزرق، وفي الدخان الخفيف الداكن. ألقى عليها الرجل نظرة باردة. بقيت من القمر في السماء ـ في هذه الساعة ـ شقفة جليدية ذائبة، غير ملحوظة. وفي ظل الصمت الثلجي، لم تُسمَع قعقعة المدينة.

---

(10) إرنست هوفمان (1776 ـ 1822) واحد من كبار الكتاب الألمان في الحركة الرومانسية وتمتعت أعماله الأدبية بنفوذ كبير خلال القرن التاسع عشر. ويُعَد كذلك رائداً في أدب الخيال (الفنتازيا). (المترجم).

الفصل الأخير

في المساء، بعد جنازة الفريق غافريلوف، عندما خمدت أصوات الأبواق النحاسية للأوركسترا العسكرية، ونُكّسَت الأعلام حداداً، وذهب الآلاف من الذين شاركوا في الجنازة وبعد أن تجمدت جثة الرجل في الأرض مع هذه التربة، ـ نام بوبوف في غرفته واستيقظ في ساعة، غير مفهومة بالنسبة له، خلف الطاولة... كانت الغرفة مظلمة وهادئة، وكانت ناتاشا تبكي. انحنى بوبوف على ابنته، وأخذها بين ذراعيه، وحملها ومشى بها في الغرفة. كان القمر الأبيض يتسلق عبر النافذة، منهَكاً من التسرع. ذهب بوبوف إلى النافذة، ونظر إلى الثلج في الشارع، وإلى صمت الليل. أفلتت ناتاشا من يَدَي بوبوف ووقفت على حافة النافذة. كانت لدى بوبوف رسالة من غافريلوف في جيبه، وهي آخر مذكّرة كتبها في الليلة التي سبقت ذهابه إلى المستشفى. وجاء في المذكرة:

«أليوشا، يا أخي! لقد علمتُ أنني سأموت. سامحني، فأنت لم تعد فتى يافعاً. لقد كنتُ أهزّ طفلتكَ وأتأمَّل. زوجتي، هي أيضاً امرأة عجوز، وأنت تعرفها منذ عشرين عاماً. لقد كتبتُ لها. وأنت أيضاً اكتب لها. واستقرّا في العيش معاً، وتزوّجا، أو ما شابه ذلك. ربِّ أطفالي! سامحني، يا أليوشا».

وقفت ناتاشا على حافة النافذة، ورآها بوبوف: قد نفخت خديها، وطوت شفتيها كأنبوب، ونظرت إلى القمر، ركّزت بصرها صوب القمر،

ونفخت فيه.

سألها الأب:

ـ ماذا تفعلين، يا ناتاشا؟

أجابت ناتاشا:

ـ أريد أن أطفئ القمر.

طاف البدر التام، مثل وجه زوجة تاجر، خلف الغيوم، مُتعباً من الحركة السريعة.

كانت تلك الساعة التي استيقظت فيها سيارة المدينة، والتي دوّى فيها أزيز صفارات المصانع. ظلت أصوات الصفير تدوي مدة طويلة، ببطء ـ صفّارة، اثنتان، ثلاث، كثير ـ اندمجت في عواء رمادي فوق المدينة. كان من الواضح تماماً أنَّ مع هذه الأصوات روحَ المدينة تعوي، وقد جمَّدها القمر الآن.

موسكو، شارع بوفارسكايا،

9 يناير (كانون الثاني) 1926.

من دون عنوان

ا

... من الصعب جداً أنْ تقتل إنساناً ـ لكن أنْ تصطلي بنار الموت أكثر صعوبة: هذا ما أشارت إليه بيولوجيا طبيعة الإنسان.

... حرشٌ من أشجار الحور الرجراج، وقتُ الغسق، مطرٌ خفيفٌ. يقطرُ مطرٌ ناعم جداً، رمادي، رطبٌ. اصفَرَّت أشجار الحور، وجعلت أوراقها تخشخش بالخيانة وتتساقط مبتلة. يمتد الطريق من وادٍ ضيّق، على الوادي جسر مكسور، مستنقَعْ. الحقلُ المتكئ على الحرش مزروع بالبطاطا. مرَّ الطريق من خلال أشجار الحور، وكانت الأخاديد ممتلئة بالطين، وخرج الطريق إلى الحقل: برج جرس الكنيسة يبرز في الأفق. الحرشُ بجوار غابة حقيقية، إنه مثلث مشانقِ الخونة (أشجار الحور التي يُصلب عليها أمثال يهوذا)... غسقٌ داكنٌ، يهطل رذاذ ناعم جداً. تكاد الغيوم تمسك بقمم أشجار الحور. لا يمكن للمرء أنْ يجتاز على الجسر، وعلى الطريق في حرش أشجار الحور، وفي حقل البطاطا: إذ سوف تغوص رجله في الوحل إلى الركبة. ولكن ها هو الغسق أضفى حمرة على الليل كدم الحبّار، وحلَّ ظلام كالكحل، فلا شيء يُرى...

وبعد عقود من الزمن، بعد سنوات عديدة مرّ خلالها على أنواع الطرق ـ بقي إلى الأبد في ذاكرته هذا الحرش في الغسق والمطر، غارقاً في الظلام، لا يُرى فيه أيّ شيء: بقي في الذاكرة إلى الأبد هذا

الذي لم يرَ فيه شيء. في الليالي، بعد أن يترك الشارع في الظهيرة وبعد أن يجتاز أنهار شوارع موسكو، لا بدّ أن يستقلّ المصعد إلى الطابق الثالث من المبنى الأول لدار مجالس «السوفييت»، الذي يقع في ركن شارعَي تفيرسكايا وموخوفايا. إذا لم يُشغَل المصباح الكهربائي، فإن ضوء الشوارع الأزرق يدخل إلى الغرفة، في هذه العتمة الزرقاء ترفرف فوق الكرملين، وفوق مبنى اللجنة التنفيذية المركزية الراية الحمراء: الراياتُ لا تُرى، يرى هذا اللون الأحمر القرمزي فقط في السماء الداكنة. وتحمل المدينة التي يقطنها ملايين الناس شظايا هديرها إلى طوابق المبنى الأول لدار مجالس السوفييت...

II

كل هذا حدث قبل عشرين عاماً.

الأبطال في هذه القصة ـ ثلاثة: هو وهي والثالث الذي قتلاه، الذي وقف بينهما.

هذا الثالث كان عميلاً سرياً. هذا الثالث كان الرجل الذي باع الناس إلى المشنقة، الذي باع الثورة وأفكارها وشرفها. تطوع، هو وهي، لقتل هذا الرجل، الذي لم يكن له اسم آخر سوى الوغد. كانت تلك أيام هزيمة ثورة 1905 ـ وكان يجب أن تكون محاكمة الشرير قاسية: لم يكن لدى المتضرِّرين ما يتحدثون عنه عندما باع أخوهم رؤوسهم إلى حبل المشنقة، وصدورهم إلى الرصاص وسنوات من العذاب البشري قضوها في السجون والمنفى، فلم يكن ثمة أحاديث.

هي لم ترَ هذا العميل المستفِز في وجهه قط. إذ غادرَت النشاط السري، وسافرت إلى القرية، إلى والدها شماس القرية. كان الوقت شهر حزيران (يونيو). هو (اسمه أندريه) جاء إليها بصفة عريس. هذا كله لم يعرفه الثالث، العميل السري، الذي لم يعرف اسم أندريه العلني. الثالث كان يجب أن يصل إلى المحطة الصغيرة، التي تقع على بعد حوالي خمسة فيرستات(11) من قرية الشماس، من أجل الاتصال، ولقاء أندريه في الغابة الأولى التي تقع على يمين عوارض سكة القطار، خلف الوادي.

كان الوقت شهر يونيو. كيف أتحدث عن الحب الأول وبأيِّ كلمات؟ ـ عن حُبٍّ أبيض مثل زنابق الوادي، وثقيل، في ربيعه، مثل أزهار الحنطة السوداء، بهذا الوزن الذي يمكن أن يقلب العالم ـ عن حُبٍّ لا يعرف أكثر من المصافحة والأشياء الشائعة ـ أمام الناس، وفي العلن، ـ عن ذلك الحب (هو وهي، كلاهما قد عرفا عنه، بعد أن تحققا منه في العشرينيات من عمرهما) الذي يكون (ويبقى للأبد) الحبّ الوحيد. كان يونيو (حزيران) شهر حشّ الأعشاب في أوان الغسق المليء بطيور الكركي: رفرف آنذاك شعرها البني في الريح العاتية، ونفخ الهواء ثوبها الأبيض، الذي ثَقُلَ بعض الشيء من ندى المساء، ـ كانت ياقة قميصه المطرزة مفتوحة كل الفتح، وليس من الواضح كيف تمسّكَت قبعته المجعدة على مؤخرة رأسه. قرأ الشماس عند السياج، بعد نهار حشّ الأعشاب، أغبى محاضرة أخلاقية عن الحياة الأسرية وأثنى بمكرٍ

ساذج على صفات ابنته، مثل التاجر. في حضور الشماس مثّلا بمرح لعبة العشاق. ذهب الشماس لينام في السقيفة. فسارا هما إلى الحقل. وبقَدَر ما كانت بحضور الشماس تضع بحنان يدها على كتفه، في الحقل هنا، سارا على بعد أرشين(12) من بعضهما البعض، في الحب، مثل جليد آذار (مارس) الذائب تحت الأقدام، وفي الحديث ـ ليس أقل من باكل(13)، على الرغم من أنَّ باكل العجوز كان وقتها قد شاخ وعفا عليه الزمن.

لم يتحدثا قَط عن أنه يجب عليهما أنْ يَقتُلا.

وجاء اليوم الذي قال فيه عند الغسق في هذه الليلة: ينبغي الرحيل. في تلك الليلة، ذهبا إلى النوم مُبكراً كالدجاج، وبعد ساعة من ذهابهما إلى النوم، التقيا خلف مستودعات تخزين الحبوب في غابة الصنوبر. كانت قبعته، كما هو عهدها مِن قبل، على قذاله، ـ أما هي، فخرجت من الظلام في ثوب أبيض، ازرَقَّ في الظلام، واقتربت مرتدية منديلاً أبيض معقوداً بطريقة الراهبات. كانت تحمل صرة في يديها.

ـ ماذا تحملين؟

ـ أخذتُ خبزاً للطريق.

ثم عدَّل هو قبعته على رأسه من دون أن ينبس ببنت شفة. نظرت إليه وهي تميل بوجهها نحوه. استقامت، وفكت منديلها ببطء ورمت قطع الخبز جانباً في الأدغال. لم يقل شيئاً.

قالت:

ـ لنذهب.

وسارا على طول درب الغابة الضيّق في صمت. فاحت من الغابة رائحة عسل يونيو (حزيران)، وتناهى نعيق بومة من بعيد، كانت الأشجار تصطف كالجدار الضيّق. سارا جنباً إلى جنب، كتفاً إلى كتف، في صمت. أحياناً كان يمد لها يده ليساعدها، فتأخذ يده بثقة. كان عليهما أنْ يسرعا إلى قطار الليل، فسارا على عَجل، ولم يخطر بباله ولا للحظة واحدة أنه بذلك المسدس الذي في جيبه، سوف يقتل رجلاً في غضون ساعة، لأنه كان يعلم أنَّ عليه إطلاق النار على الخَسِيس، الذي لم يعد إنساناً بالنسبة له. لم يكن يعرف على الإطلاق بماذا كانت هي تفكر، مثلما كان لا يعرفها مِن قَبل. كانت تسير بجانبه، بوصفها الشيء الوحيد الذي لديه، وبوصفها حبه، وثقله من الحنطة السوداء، ـ كان رأسها في المنديل الأبيض مائلاً بعناد، تماماً كما فعلت عندما تطوعت لأن تذهب لقتل المستَفِز (العميل السري). ـ من الغابة خرجا إلى الحقل. من بعيد، في الحقل، لاحت أضواء محطة القطار، فسارا بسرعة أكبر، ـ سار أمامها، وسارت خلفه خطوة بخطوة. اقتربا من طرف حرش أشجار الحور. خشخشا بأشجار الحور على طريقة الخونة، فصارت غابة الصنوبر كالجدار الأسود خلف الحور، وفاحت من الحقل رائحة أزهار البطاطا، ـ توهَّجت في العلاء النجوم الباهتة في سماء شهر حزيران (يونيو) الروسية الرمادية.

توقفا هنا. هنا، في طرف حرش أشجار الحور هذا، كان يجب أن تبقى، وكان عليه أن يذهب إلى أشجار الصنوبر. هَدَر القطار من بعيد، فقد غادر المحطة. كان لا يزال هناك عشر دقائق زائدة. فجلس على العشب بالقرب من شجرة حور. وجلسَت طائعةً بجانبه.

قال:

ـ الحقيقة، لم يكن ثمة بأس لو أكلنا قطعة الخبز.

لم تردَّ عليه بشيء.

فسألها:

ـ هل مسدسكِ على ما يرام؟

مدت يدها في صمت، وقبضَت على المسدس بيدها.

فقال لها:

ـ سوف تطلقين النار عليه إذا ما فشلتُ في قتله. وإذا ما أُصِبتُ بجرح بالغ، فسوف تطلقين النار عليّ.

هزَّت رأسها علامةً على الموافقة مِن دون أن تقول أي شيء.

لم يتحدَّثا بعد ذلك بأيِّ شيء آخر. أشعل سيجارة، ودخنها في قبضته، وبصق بشدة، وعدَّلَ قبعته، ثم نهضَ. هي كذلك نهضَت.

مد لها يده. فضغطت على يده ضغطة ضعيفة، وسحبتها إليها، قبَّلَته

على شفتيه قُبلة عذراء وَدِيعة، للمرة الأولى والأخيرة في حياتهما. عدَّلَ قبعته من جديد، واستدار فجأة، ثم سار في ظلام أشجار الحور. وبعد أن سار عدة خطوات، التفتَ إلى الوراء: رأى الثوب الأبيض. رآها وهي تركض من الحافة إلى الأسفل في الوادي، نحو الجسر، نحو حرش الحور، كانت تجري بخطى واسعة وحاسمة. فسار هو إلى أشجار الصنوبر. صاحت طيور الكركي البري في الحقل، ومرت الليلة بهدوء عميق.

من سدة السكة الترابية إلى ضباب الوادي، سار نحو أشجار الصنوبر الشخصُ الثالث، وهو رجل يرتدي قبعة من القش ومعطفاً. ذهب هذا الثالث إلى أشجار الصنوبر. هذا الثالث قابله أندريه.

سأل الثالث أندريه:

ـ هل هذا أنت، يا كوندراتي؟

أجاب أندريه:

ـ نعم، أنا. هيّا لنذهب.

سارا جنباً إلى جنب. بدا لأندريه أنَّ هذا الثالث يسير بطريقة تجعله يكون خلف أندريه طوال الوقت، وعندما دسَّ أندريه يده في جيبه، اقترب منه.

سأل الثالث:

ـ ما خطبك، يا كوندراتي؟

لم يرد أندريه، ـ وبعد أنْ تراجع خطوة، استلَّ المسدس من جيبه وأطلق النار عن كثب على العميل السري في صدره. فابتسم العميل السري وجلس على الأرض، بعد أنْ رفع يديه عاجزاً. كان لديه في يده اليمنى مسدس «براوننغ». أطلق أندريه طلقة ثانية على هذا الوجه المبتسم. فسقط الرجل على ظهره مثل كيس الطحين. تقهقر أندريه بخطوات كبيرة. ومشى بهذا الشكل مائة خطوة. ثم عاد إلى الجثة، انحنى عليها، ودفعها بقدمه. عدَّلَت الجثةُ بشكل غير طبيعي الساقَ المثنية، وكان الوجه يبتسم ابتسامة الموتى. دفعه أندريه مرة أخرى وبحذرٍ، مثل الناس الذين يخشون الإصابة بالعدوى، بدأ يفتش جيوبه.

في هذا الوقت، وصلت هي إلى أشجار الصنوبر، ونظرت إلى القتيل وأندريه نظرة تفحصٍ، ومشَت إلى حافة الغابة، وقفت وظهرها إلى أشجار الصنوبر.

اقترب منها أندريه، فمشَت بصمت إلى الأمام. وهكذا سارا: هي في الأمام، وهو في الخلف. قطعا المسافة كلها من دون راحة. انبَلَج السَّحَرُ على الأرض، فتغطّى المشرق بالفجر القرمزي، والقمر، الذي ارتفع مع الفجر، نثر الندى الجديد. أثارَ شروق الشمس مهابة الصمت. لم يقولا كلمة واحدة لبعضهما البعض طوال الطريق كله. ودخلا المنزل بصمت.

III

لم يقولا بعد ذلك كلمة واحدة لبعضهما البعض على انفراد. وفي

صباح اليوم التالي، أيقظته بضحكة مرحة، وتحدث الشماس بألطف حماقات على مائدة الفطور المتكونة من البطاطا، وداعبت العريس كعروس رقيقة. غادر الشماس، ـ وتُرِكا وحدهما، ـ بقيا صامِتَين. مرت ثلاثة أيام، تريّثا آنذاك حتى تُمحى الآثار، لكن خلال هذه الأيام الثلاثة لم تصل إلى قريتهم حتى الأخبار، ـ وفي اليوم الرابع أوصلَهما الشماس إلى المحطة، وقبّلهما كليهما بشدة على رصيف المحطة. وصلّبَ عليهما بشارة الصليب وباركهما، ـ وفي موسكو مشيا من المحطة في اتجاهين مختلفَين، من دون أن يتفوها بكلمة واحدة لبعضهما البعض.

... الطريق الترابي، الحرش الخريفي الصغير، الجسر على الوادي، حقل البطاطا، هذه كلها بقيت إلى الأبد في ذاكرته. اصفَرَّت أشجار الحور، وجعلت أوراقها تخشخش بالخيانة وتتساقط مبتلة. كل شيء منتفخ من طين الخريف، والطين يلتصق بالأحذية حتى الركبة... ولكن بعد ذلك امتلأ الشفق بدم حبّار الليل، وغشيَ الظلام كل شيء. الظلام الذي لا يمكن رؤية أي شيء فيه... ـ حرشُ أشجار حور الخونة الخريفي هذا بقي في الذاكرة ليس بسبب تلك الليلة التي قتل فيها رجُلاً هنا، إذ كان حينها شهر يونيو (حزيران) أوان العسل وقصّ الحشيش، ـ بل لأنه منذ ذلك الحين، وفقاً لقانون الطبيعة الغريب، الذي أمر القاتل أن يأتي إلى مكان القتل، ـ جاء في الغسق الخريفي الأسود ليقضي الليل في المكان الذي قتلَ فيه الحبَّ.

... المُنحَدَرُ الخريفي، الغسقُ، ورذاذُ المطر، ـ ثم الظلام الذي لا

يرى فيه شيئاً... في المساء، بعد شارع الظهيرة وبعد أنهار شوارع موسكو، عليه أن يستقل المصعد إلى الطابق الثالث من المبنى الأول لدار مجالس «السوفييت»، إذا لم يُشعَل المصباح الكهربائي، فإنّ ضوء الشوارع الأزرق يدخل إلى الغرفة، في هذه العتمة الزرقاء ترفرف فوق الكرملين، وفوق مبنى اللجنة التنفيذية المركزية الراية الحمراء، ـ تلك الراية التي من أجلها دُفِنت غابة الحور الرجراج في ذاكرته.

قرية أوزكويه،

7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1926

---

(11) فيرست: وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. يتم تعريفها باعتبارها تساوي 500 قامة (ساجين)، القامة تعادل (2,13 م)، مما يجعل الفيرست يساوي 1.0668 كيلومتراً. (المترجم).

(12) أرشين: مقياس طول روسي قديم يساوي 71 سنتيمتراً. (المترجم).

(13) هنري توماس باكل (1821 ـ 1862): مؤرخ وعالم اجتماعي ولاعب شطرنج إنكليزي، مؤلف كتاب «تاريخ الحضارة في إنكلترا» (1857 ـ 1871). انتقد باكل التفسير اللاهوتي للتاريخ. وبصفته ممثلاً لمذهب الحتمية الجغرافية، فإنه يعزو تطور الحضارات إلى تأثير عوامل طبيعية. (المترجم).